سنة ثمان عشرة والف فاسف الناس عليه لانّه كان يردّه عن كثير من القبايح وينهاه عن فعل المناكر ولا يرضى منه افعاله الخبيثة والحول والقوّة بالله والامر الى الله

ذكر الخبر عن السلطان الشيخ بن المنصور

وما وقع الى حين خلعته وقتله

كان من خبر الشيخ ما انتهى ذكرنا له قبل وانّه هرب الى العرائش ومنها توجّه الى العدوة من ارض العدوّ مستصرخاً بطاغية الروم دمّره الله فابى ان يمدّه فراوده على ان يترك عنده اولاده وحشمه رهناً ويعينه بالمال والرجال فلم يكترث به الى ان شرط عليه ان يخلى العرائش من المسلمين ويملّكها للنصارى فقبل الشيخ ذلك والتزمه وخرج حتّى نزل حجر بادس وذلك في ذي الحجّة عام ثمانية عشر والف فاقام بها مدّة وكان الشيخ لمّا خرج في حجر بادس ونزل بلاد الريف ذهب علماء فاس واعيانها كالفقيه القاضى ابي القاسم بن ابي النعيم والشريف الوجيه المنيف النزيه ابي اسحاق ابراهيم السقلّى الحسنّى وغيرهما لملاقاته وتهنيته بالقدوم فلمّا بلغوه فرح بهم وامر قبطان النصارى ان يضرب بانفاضه ارهاباً واظهاراً لقوّة النصارى الذين استصرخ بهم فضربها حتّى اصطكّت الاذان وارتجّت الجبال ونزل القبطان من السفينة للسلام على الاعيان فلمّا راوه مقبلاً امرهم الشيخ بالقيام له فقاموا له اجمعون وجازوه خيراً على ما فعل بالشيخ من الاحسان والنصرة وسلّم هو عليهم بنزع قلنسوته كعادة النصارى وانكر الناس على اولائك الاعيان قيامهم للكافر وضربوا بعصا الذلّ والهوان من الملك الديان حتّى انّهم في رجوعهم لفاس تعرّض لهم عرب الحياينة فسلبوهم واخذوا ما معهم وجرّدوهم من ملابسهم جميعاً ما عدى

القاضي ابي القاسم بن ابي النعيم فانّه عرف بزيّ القضاء فاحترموه ثمّ انّ الشيخ انتقل لقصر عبد الكريم فاقام به مدّة وراود روساءه وقوّاد جيشه ان يقفوا معه في تمكين العرائش للنصارى ليفي له الطاغية بما وعده من النصرة بالمال والرجال فامتنع الناس من اسعافه على ذلك ولم يوافقه على غرضه احد الاّ قائده الجرني فانّه ساعده على ذلك فبعثه الشيخ لها وامره ان يخليها ولا يدع احداً بها من المسلمين فذهب الجرني فكلّم اهلها في ذلك فامتنعوا من الجلاء عنها فقتل منهم عدّة وخرج منها الباقون تخفّق على رؤسهم الوية الذلّ والصغار وهم يبكون ولمّا خرج منها المسلمون اقام بها القائد الجرني الى ان احتلّ بها النصارى وذلك في رابع رمضان المعظّم عام تسعة عشر والف ووقع في قلوب المسلمين من الامتعاض من اخذ العرائش أمر عظيم وانكروا ذلك اشدّ الانكار وقام الشريف احمد ادريس الحسنيّ ودار على مجالس العلم ونادى بالجهاد والخروج لاغاثة المسلمين بالعرائش فانضاف له اقوام وعزموا على التوجّه لذلك فبعث في عضدهم قائده حمّ المعروف بابي دبيرة وصرّف وجوههم عمّا قصدوه في حكاية طويلة وكان الشيخ لمّا خاف من الفضيحة وانكار العامّة والخاصّة عليه اعطاؤه العرائش بلاد الاسلام للكفّار احتال على ذلك بان كتب سؤالاً لعلماء فاس وغيرها يذكر لهم فيه انّه لمّا وغل ببلاد العدوّ الكافر واقتحمها كرهاً باولاده وحشمه منعه النصارى من الخروج من بلادهم بعد ان دخلها حتّى يعطيهم بلاد العرائش وانّه ما تركوه خرج بنفسه حتّى ترك عندهم اولاده رهناً حتّى يمكّنهم ممّا ارادوه فهل يجوز ان يفدي اولاده من ايديهم باعطائها لهم ام لا فاجابوه بأن فداء المسلمين سيّما اولاد امير المؤمنين سيّما اولاد سيّد المرسلين وخاتم النبيّين سيّدنا ومولانا محمّد صلّى الله عليه وسلّم من يد العدوّ الكافر باعطاء بلد من بلاد المسلمين للعدوّ جائز وانّا موافقون على ذلك . ووقع هذا الاستفتاء بعد ان وقع الاعطاء وما اجاب به من اجاب من العلماء عن ذلك الاّ خوفاً على نفسه وقد هرب جماعة من الفتوى كالامام

ابي عبد الله محمّد الجنان صاحب الطرر الشهيرة على المختصر وكالامام ابي العبّاس احمد المقّريّ مؤلّف نفح الطيب فاختفيا مدّة مديدة استبراءً لدينهما حتّى صدرت الفتوى من غيرهما وبسبب هذا الفتوى ايضاً هرب جماعة من علماء فاس للبوادي كالامام سيّدي الحسن الزياتيّ شارح الجمل والامام الحافظ ابي العبّاس احمد بن يوسف الفاسيّ وغيرهما والحول والقوّة بالله ثمّ انّ الشيخ نزل بالفحص واجتمع عليه الناس من اهل الدعارة والفساد والعتو والعناد فعتى في البلاد على عادته ورحل لتطاون فاخذها وخرج منها المقدّم احمد النقسيس هارباً ولم يزل يجول في بلاد الفحص الى ان تمالا اشياخ الفحص على قتله لما راوا من انحلال عقده ورقّة ديانته وتمليكه بلاد الاسلام للكفار فقتله المقدّم محمّد ابو الليف غدراً بمحلّته بموضع يعرف بفجّ الفرس وبقي مطروحاً مكشوف العورة اياماً حتّى خرج جماعة من تطاون فحملوه ودفنوه مع من قتل من اصحابه كالدبيريين وبعض اولاده خارج تطاون الى ان حملا لفاس الجديد مع امّه فدفنا به وكان قتله خامس رجب سنة اثنتين وعشرين والف ويقال انّ قتله كان باشارة الثائر ابي العباس احمد بن عبد الله المعروف بابي محلى وانّه كتب للمقدّم احمد النقسيس والمقدّم محمّد ابي الليف يحضّهما على قتله فقتلوه وانتهبوا ماله وكان له مال معتبر ومن جملة ما نهب له نحو مدّين من الياقوت وباقي ماله وسق سفينة تركه بطنجة فاستولى عليه النصارى لما قدّر بجرى القدر المحتوم وكان الشيخ عفا الله عنّا وعنه له مشاركة في العلوم ويد في مبادي الطلب اخذ عن اشياخ الحضرتين ومن شعره ما رايت بخطّ بعض الافاضل مغزوّاً اليه لغز في قول ابن مالك في الالفيّة ينصب تمييزاً

اسائل قرّاء الخلاصة كلّهم عن امر غريب قد بدا لي اذا قرى
على الحال وهو اسم بدا لي نصبه الا فهو تمييز فذا اعجب الامر

ومن كتّابه الاديب الفقيه المشارك المتفنّن ابو العبّاس احمد بن محمّد ابن القاضي

محمد الغرديس التغلبي وكان من الاجادة والتبريز في صناعة الانشاء قال الشيخ سيدي العربي الفاسي في شرحه لدلائل الخيرات عند قوله كان لي جار نساخ ما نصه وقد كان الشيخ الكاتب الرايس ابو العباس احمد بن محمد الغرديس شيخ كتاب الانشاء بحضرة فاس امنها الله استعار مني كتاب الانباء في شرح الاسماء للاقليشي ثم مرض مرض موته فعدته فوجدت الكتاب عند راسه ومعه كراريس منسوخة واخرى معدة للنسخ فقال لي اذا وجدت راحة كتبت منه ما قدرت عليه فاذا غلبني ما بي امسكت فقلت ولم تكلف نفسك بذلك فقال لي اني عصيت الله بهذه الاصابع ما لا احصيه فرجوت ان يكون ما اعانيه على هذه الحالة من نسخ هذا الكتاب خاتمة لعملي بها وكفارة لذلك قال فكمل الله قصده وتم الكتاب وتوفي رحمه الله من مرضه ذلك وقد طال به من عام تسعة عشر الى عام عشرين والف وعلى كل حال فالنسخ من الحرف المهمات والاشغال العلميات . وله يقول الشاعر

تمتعت يا غرديس والدهر راقد ... وانت بفاس وابن جبور واجد
لسعدك راحت خيزران لقبرها ... مصائب قوم عند قوم فوائد

ذكر الخبر عن اولية الثائر الفقيه القائم ابي العباس احمد بن عبد الله المعروف بأبي محلي وما كان من امره وانتهائه بقتله

قال هو في كتابه اصليت الخريت في قطع بعلوم العفريت كانت ولادتي بسجلماسة عام سبعة بموحدة وستين وتسعماية والذي تلقيته من ابي وكافة عمومتي ان اولاد ابي محلي من ذرية السيد العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه وذكر لي بعض قواد ابي العباس المنصور ان بعض خواص المنصور ذكر له

انّ بيده كتاباً في الانساب نصّ فيه على ذلك وقد لقيت طالباً لا اتهمه بالكذب كما لا ابريه من الغلط ذكر لي انّه كان بيده كتاب في الانساب نقل فيه ان قبيلتنا اولاد ابى محلى منسوبة فيه الى عبد الله ابن جعفر وانهم خرجوا من مكناسة لسجلماسة بقصد تعليم الناس الدين والعلم ولهم اخوة بناحية تلمسان يقال لهم مكناسة فسالته الكتاب فقال لي انّه احترق في منزله وما كذبته ولكن خفت عليه من الغلط في عبد الله بن جعفر بابي جعفر المنصور العبّاسيّ وقد قال لي استاذي وهو ابو العبّاس سيّدي احمد بن ابي القاسم الصومعيّ التادليّ قد طالعت مختصر الذيل لابن السمعانيّ عام واحد وثمانين وانّه راه بمرّاكش فذكر فيه في اولاد ابي محلى وجهين امّا مغراوة وامّا لمتونة وقد يقال يمكن الجمع بينهما لانّ مغراوة قالوا اصلهم من قيس غيلان وقيس من مضر وهم العرب العاربة اي القديمة قال وامّا جدّنا الاشهر المكنّى بابي مَحَلّى بفتح الميم والحاء واللام المكسورة المشدّدة بعدها ياء تحتيّة ساكنة مع كبير شهرته لا علم لي بسبب تكنيته بذلك ولا بتفاصيل احواله وعن ذلك كلّه كان يحثى الحثيث كما كتبت فيه كما مرّ لنسّابة وقته الشيخ التادليّ رحمه الله قال وبخطّة القضاء اشتهر نسبنا في بلادنا فنعرف باولاد القاضى وزاويتنا بزاوية القاضى ولم تزل بقية العلم في دورنا وخصوصاً دار ابي في اخوتي وبنيه فلمّا نشات في حجر والدي بذل مجهوده في تعليمى وقد رات امّى وهى حامل بي وليّاً من اولياء الله تعالي احد شيوخ التربية ببلدنا وهو سيّدي علىّ بن عبد الله قد سقاها قدحاً من لبن وارجو الله سبحانه وتعالى صدق تاويلها بالعلم والدين وحقّ اليقين وكان خروجى لطلب العلم بفاس في حدود سنه ثمانين وتسعماية وانا يومئذ مراهق او بالغ لا همّة لي الاّ في العلم ولا شغل لي الاّ بالحفظ والفهم فاقمت بفاس كذلك اربع سنين او خمساً الى ان جاء النصارى لوادي المخازن كما ذكرنا قبل فدهش الناس واستشرتُ من الطلبة اخاً صالحاً فدلّنى على الخروج للبادية حتّى يجلى نهار الامن والعافية فخرجت الى بادية العسل والسمن وهى اجذيحرة

فحفظت فيها الرسالة وقد كنت ما حصلت بفاس الاّ نحواً ولا نزعت من بيره الاّ دلواً ثمّ رجعت لفاس بعد ان زال الدهش بولاية المنصور وهزيمة النصارى والنحو صنعتي وفي الفقه رغبتي احاوله حفظاً واقدمه لفظاً وقد كنت في الخرجة الاولى للبادية زرت قبر الشيخ المستجاب عنده الدعاء ابي يعزى فطلبت الله عنده ان اكون من الراسخين في العلوم باسرها وتوبة منّي يتقبّلها فما دار علىّ حول الاّ وانا بزاوية الشيخ سيّدي محمّد بن مبارك الزعريّ لا عن قصد لكوني اذّاك مولعاً بالعلم وطريق الفقر لا تخطر ببالي لانّ المعتمد يومئذ في الفقراء خلاف الظنّ فكنت اشدّ الناس حذراً منهم الى ان انكشف الستر وانحسر فرايت ما رايت الى ان وعيت فصاحبت شيخي الذي لولا هو من فضل الله لهلكت ولولا هدايته باذن الله لضللت وكيف لا وهو الذي انقذني الله به من بحر هواي المضلّ ودلّني به عليه برحمته في اصحاب الصراط السوي ابي عبد الله سيدي محمّد بن مبارك الزعري القبيل الجراري السبيل وفي القرون عاشري الجيل وهو رضى الله عنه من قبيلة عرب بالمغرب يقال لهم زُعَيْر بصيغة التصغير والنسب اليه على التكبير وقد سمعت من شيخ مسنّ في القبيلة المذكورة يذكر انّ سبب تسمية جدّهم بزُعَيْر انّه كان يحرث على جمل وفرس معاً فقال للاوّل في زجره زع لانّها كلمة تساق بها الابل وقال للثاني وهو الفرس ري بكسر الراء كما انّ زع بفتح الزاى لانّها كلمة تساق بها الخيل وتزجر فلمّا نطق بهما معاً لقّب بهما ثمّ غلب على السنة العامة اليوم تصغير زعير قال الشيخ المذكور وكان اسم الزعريّ قبل ذلك سليمان ثمّ غلب لقبه على اسمه وزعم مع ذلك انّه اخو بربش واشبان تنسب لكلّ واحد منهم الى الان قبائل شتى من عرب سوس بالمغرب الاقصى فبقيت في صحبة شيخي المذكور نحواً من ثمانية عشر عاماً وما فارقته بالمرسوم الاّ عن امره اذ هو الذي وجّهني لبلاد سجلماسة من غير اختيار قائلاً لي انّ صلاحهم فيك ثمّ ناولني عصاه وبرنسه ونعله من غير طلب منّي لشيء من ذلك وجعل في راسي قلنسوة كالخرقة بيده اليمنى عند الوداع فلمّا استوطنت

بلدي عن امره زرته منها نحواً من اثنى عشر مرّة وفي الاخيرة منها عند مقفلي من الحجّة الاولى التى في حياته السعيدة وذلك عام اثنين بعد الالف دعا لي بقوله بلاك الله اكثر ممّا بلاني فتاوّلته باقبال الخلق علىّ كما ترى وقد صاح عندها صيحة عظيمة وما كانت من عادته وما رايت منه مثلها منذ صحبته لطمانينته ولمّا توفّى ايّده الله وقدّسه بقيت نحواً من ثلاث سنين عاطلاً ثمّ تجلّى التجريد بنور لطائفه الموعود بها فله الحمد على ما اسدى وله الشكر فيما اهدى ثمّ ذكر بقية اشياخه كالمنجور وسيّدي احمد بابا السودانيّ وغيرهم ممّن يطول بنا تتبّعه قال ثمّ كملت الفائدة بعد المقفل من الحجّ فلمّا اطلّ شهر رجب من عام واحد او اثنين والف اجتمعت بالالف الصديق الثقفى ابي يحيى الفاسىّ وكذلك البدخشى من بخارى على نخبة ابن حجر ثمّ رجعت لزيارة الديار المغربيّة الى وادي الساورة ثمّ تحوّلت بجميع عيالي للوادي المذكور هذه ملخصة اوّليّته رحمه الله من كتابه المذكور وهو كتاب مفيد وقفت عليه في مجلّد ومنه انتقينا هذه العجالة والله وليّ التوفيق والهادي لِأَقْوَم طريق

ذكر الخبر عن استحالة دلوه غرفاً

وملئه الدنيا عياطاً شرقاً وغرباً

قال الشيخ الفقيه ابو العبّاس احمد التواتيّ رحمه الله في رسالته التى سمّاها مقام التجلّى والتخلّى من صحبة الشيخ ابي مَحَلّى وهى رسالة طويلة مسجعة وقفت عليها بخطّ مؤلّفها ما نصّه كان الفقيه ابو العبّاس احمد بن عبد الله ابو محلى في اوّل امره فقيهاً صرفاً ثمّ انّه انحى طريق التصوّف مدّة حتّى وقع على بعض الاحوال الربّانيّة ولاحت عليه مخائل الولاية الرحمانيّة فانحشر الناس لزيارته افواجاً وقصدوه فرادى وازواجاً وبعد في البلاد صيته وكثرت اتباعه قال

فلمّا سمعت بذلك ذهبت اليه وجلست عنده مدّة الى ان وجدته يشير الى نفسه بانّه المهديّ المعلوم المبشر به في صحيح الاحاديث فتركته وراء ونبذته بالعراء . وذكر ابو علىّ اليوسىّ في المحاضرات انّ ابا العبّاس احمد ابا محلى كان ذات يوم عند استاذه ابن المبارك قبل ذلك فورد عليه وارد حال فتحرّك وجعل يقول انا سلطان انا سلطان فقال له الاستاذ يا احمد هب انّك سلطان انّك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولاً وفي يوم اخر وقع للفقراء سماع فتحرّك وجعل يقول انا سلطان فتحرّك فقير اخر في ناحية وجعل يقول ثلاث سنين غير ربع فكان الامر كذلك . ويذكر انّه لمّاطاف بالبيت في وجهته الحجازيّة سمع وهو يقول يا ربّ انت قلت وقولك الحقّ وتلك الايّام نداولها بين الناس فاجعل لي يا ربّ دولة بينهم ولم يسال حسن العاقبة فرزق الدولة فآل به الحال الى ما ابرمته الاقدار وكان فقيهاً جليلاً له قلم بليغ ونفس عالية وله تآليف منها الوضاح والقسطاس والاصليت ومنجنيق والصخور في الردّ على اهل الفجور رايته بخطّه وجواب الخرّوبيّ على رسالته الشهيرة لابي عمر المرّاكشىّ وغير ذلك وله شعر وسط وسوّلت له نفسه انّه يقدر على القيام بوظيفة تغيير المنكر فاصيبت مقاتله من ذلك وهو لايدري وقال شيخ شيوخنا ابو علىّ اليوسىّ رحمه الله في المحاضرات له كان ابو محلى المذكور مصاحباً لابن المبارك التاستاوتيّ في الطريق حتّى حصل له منها نصيب من الذوق والّف فيها كتباً تدلّ على ذلك ثمّ نزغت به هذه النزغة فحدّثوا عنه انّه في اوّل امره معاشراً لابن ابي بكر الدلاءيّ وكان البلد اذّاك قد كثرت فيه المناكر وشاعت وفشا المنكر في الوقت فقال احمد بن عبد الله لابن ابي بكر ذات ليلة هل لك في ان تخرج غداً الى الناس فنامر بالمعروف وننهى عن المنكر ونكون قد قدمنا بوظيفة تغيير المنكرات فانّها قد شاعت وفشت فابي عليه ابن ابي بكر ولم يساعفه لما راى من تعذّر ذلك لفساد الوقت وتفاقم الشرّ وقال له انّ شروط تغيير المنكر لم تتوفّر فلمّا اصبحا خرجا فامّا ابن ابي بكر فانطلق ذاهباً الى ناحية النهر

يغسل ثيابه وازال شعثه بالحلاق وعمر اوقاته باوراده وادّى صلواته في اوقاتها واما ابن ابي محلى فتقدّم لما همّ به من الحسبة فوقع في شرّ وخصام وافضى به الحال وادّاه الى اخراج الصلاة عن الوقت ولم يحصل على طائل فلمّا رجعا بعد المغرب الى ماواهما واجتمعا بالليل قال له ابن ابي بكر امّا انا فقد قضيت مئاربي وحفظت واديت صلاتي في وقتها وانقلبت في سلامة وعافية وصفاء ومن اتى منكراً فالله حسيبه او نحو هذا من الكلام وامّا انت فانظر ما الذي وقعت فيه ثمّ لم يتته عن ذلك ولم يلبث الى ان ذهب الى بلاد وادي الساورة من بلاد القبلة ودعا لنفسه واظهر انّه ما حمله على ذلك الّا كثرة المناكر وتفاقم البدع ولم يقتصر على ذلك وادّعى انه المهديّ المنتظر وانّه بصدد الجهاد فاستخفّ قلوب العوام فتبعوه وكان رحمه الله يكاتب رؤساء القبائل وعظماء البلدان يامرهم بالمعروف ويحضّهم على الاستمساك بالسنّة ويشيع انّه الفاطميّ وانّ من تبعه فهو الفائز ومن تخلّف عنه فهو موبق وربّما كان يقول لاصحابه محرضاً لهم على نصرته انتم افضل من اصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لانّكم قمتم بنصر الحقّ في زمن الباطل وهم قاموا به في زمان الحقّ او نحو هذا من زخاريف كلامه والى هذا اشار الفقيه ابو زكرياء يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحيّ في بعض قصائده معرضاً بابي محلى المذكور ومحذراً من حاله فقال

يا امّة المصطفى الهادي اليس لكم ... فيمن مضى اسوة من سائر العلما
اتحسبون بانّ الله يتركم ... سدى وخلقكم قد تعلمون لما
ناشدتكم بالذي في العرض يجمعكم ... اما فطنتم ومالاه كمن علما
بانّ مغربكم قد عمّه سخط ... من المهيمن بالله معتصما
ان قيل للناس ان الهرج يوبقكم ... قالوا الفقيه فلان قبلنا حرما
لو لم يكن جازماً افتى الامام به ... ولا اتاه الاجلّ ابن الذي هدما
ومن يقل قال خير الخلق قيل له ... ها صاحب الوقت يكفينا الذي علما

ونحن افضل من نحب الرسول لنا اجريضاً عفّ في اجبارنا نظما
وزخرفوا نزهات الخال فانفعلت له قلوب عوام رشدها عدما

وقد وقعت بينه وبين يحي بن عبد الله هذا مراسلات ومهاجات نظماً ونثراً كقوله

ايحي الخسيس الندل مالك تدعى قصوراً شعاراً للفحول الاوائل
كدعواك من بيت النبوّة نسبة وانت دنيّ من اخسّ القبائل
ووجهك وجه القرد اقبح ما يرا وراسك راس الديك بين المزابل
وشدّك تعميماً كراس عجوزة من الروم اقعدت لغسل المنادل

ويزعمون انّ يحي كان معاشراً لابن ابي محلى في زمن الطلب بالمدرسة بفاس وللعاقبة فيما وقع بينهما من الامور السخريّة ما انزه كتابي هذا عن تسطيره والله يسامح الجميع بمنّه

ذكر الخبر عن دخوله سجلماسة ودرعة ومرّاكش

وما وقع في ذلك كلّه

كان ابو محلى رحمه الله لمّا كثرت جموعه واتباعه وتعدّدت اشياعه وانثال الناس لزيارته صرخ فيهم بوجوب القيام بتغيير المنكر التى شاعت في الناس وذاعت وجعل يقول انّ اولاد المنصور قد تهالكوا في طلب الملك حتّى فى الناس فيما بينهم وانتهبت الاموال وانتهكت المحارم فيجب الضرب على ايديهم وكسر شوكتهم ولمّا بلغه ما فعل الشيخ ابن المنصور من اجلاء المسلمين عن العرائش واخلائها منهم وبيعها للعدوّ الكافر استشاط غضباً واظهر انّه غضب

لدين الله واهله لا حمية وتعصّباً فخرج الى سجلماسة يوماً بقصد اخذها وكان خليفة زيدان عليها رجل يسمّى الحاجّ المير فخرج عامل زيدان المذكور لمصادمته وهو في نحو اربعة الاف وابو محلى في نحو اربعماية مقاتل فلمّا تراءا الجمعان كان الدائرة على جيش عامل زيدان واشاع الناس انّ الرصاص يقع على اصحاب ابي محلى بارداً لا يضرّهم فسكنت هيبته في القلوب وتحرّك له ناموس عظيم ولمّا دخل سجلماسة اظهر العدل وغيّر المناكر وقدمت عليه وفود اهل تلمسان والراشديّة يهنّونه بالفتح والظفر وفيهم الفقيه العلّامة سيّدي سعيد قدورة الجزائريّ صاحب الشرح على السلم وهو من تلامذة ابي محلى كما ذكره في كتاب الاصليت ولمّا بلغت الهزيمة زيدان ووصله الفلّ جهّز جيشاً عظيماً فبعث به وامّر عليه اخاه عبد الله بن المنصور المعروف بالزبدة فسمع به ابو محلى فسار لدرعة فوافاه هنالك عبد الله فوقعت الهزيمة عليه وقتل من اصحابه نحو الثلاثة الاف فقوى عند ذلك امر ابي محلى واشتدّت شوكته وجمع بين سجلماسة ودرعة وكان القائد يونس الايسيّ هرب من زيدان لامر نقمه عليه وقصد الى ابي محلى وجاء معه يطلعه على عورات زيدان ويخفّف عليه امره فما زال به الى ان توجّه به الى مرّاكش ففرّ منها زيدان لثغر اسفى وهمّ بالهرب والعبور الى العدوة ولمّا دخل ابو محلى قصر الخلافة من مرّاكش فعل فيه كيف شاء وتزايد له ولد هنالك فسمّاه زيدان ويقال انّه تزوّج امّ زيدان وبنى بها ودبّت في راسه نشوة الملك ونسى ما بنى عليه امره من التقوى والنسك وفي المحاضرات للشيخ اليوسيّ رحمه الله ما صورته لمّا دخل ابو محلى مرّاكش ذهب اليه اخوانه من الفقراء برسم زيارته وتهنيته فلمّا كانوا بين يديه اخذوا يهنّونه ويفرحون به بما حاز من الملك وفيهم رجل ساكت فقال له ابو محلى ما لك لا تتكلّم والحّ عليه في الكلام فقال له الرجل انت اليوم سلطان فان امنتني على ان اقول الحقّ قلته فقال له انت آمن فقال له انّ الكورة التي يلعب بها يتبعها المائة والمايتان واكثر واقلّ من خلفها ويكثر الصياح والضجيج والهول

وينكسر بعض الناس وينجرحون وقد يموتون ولا يبالون واذا فتشت فلم يوجد فيها الّا شراويط اي خرق بالية مافوقة فلمّا سمع ابو محلى هذا المثال وفهمه بكى وقال رمنا ان نجبر الدين فاتلفناه ،

ذكر الخبر عن استصراخ زيدان بيحيي بن عبد الله ومقتل ابي محلى وما وقع في ذلك

ولمّا راى زيدان ما راى وتحقّق فشل ريحه وضعفه عن مقاومة ابي محلى كتب للفقيه ابي زكرياء يحي بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحيّ ثمّ الداوديّ مستغيثاً به ومستصرخاً وكان يحي بزاوية ابيه من جبل درن وله شهرة عظيمة في الصقع السوسيّ واتباع فبعث له زيدان مستنجداً ومستصرخاً وقال له انّ بيعتى في اعناقكم وانا بين اظهركم فيجب عليكم ان تدبّوا عنى وتقاتلوا معى من ناوانيّ فلبّى ابو زكرياء نداءه واغاثه فحشد الجيوش من كلّ فوج وجمع الجموع من كلّ صوب وخرج يريد مرّاكش في ثامن رمضان عام اثنين وعشرين والف ولمّا بلغ يحي ڤم تانوت موضع على مرحلتين من مرّاكش كتب له ابو محلى بما نصّه بسم الله الرحمن الرحيم من احمد بن عبد الله الى يحي بن عبد الله بلغنى بانّك جندت وبندت وفي تانوت نزلت اهبط للوطا لينكشف بينى وبينك الغطا فالذئب حتّال والاسد صوّال ولا تستقيم الايام الّا بضرب القنا وقطع الحسام والسلام فاجابه بما نصّه بسم الله الرحمن الرحيم من يحي بن عبد الله الى احمد بن عبد الله امّا بعد فليست الأيّام لا لي ولا لك انّما هى للملك العلّام وقد اتيتك باهل البنادق والاضرار من شبّانة ومن انتمى اليهم من بنى جرار واهل الشرور والبؤس من هشتوكة الى بنى كنسوس فالوعد بينى وبينك جيلز هنالك ينتقم الله من الظالم ويعزّ العزيز والسلام ثمّ زحف

يحيي لمرّاكش بجنوده الى ان نزل قرب جيلز جبل يطلّ على مرّاكش فخرج اليه احمد بن عبد الله بجنوده فوقعت المعركة بينهما هنالك فكانت اوّل رصاصة في نحر ابي محلّى فمات مكانه وفرّت جموعه ونهبت محلّته وقطع راسه وعلّق على سور المدينة فبقي معلقاً مع رؤوس جماعة من اصحابه نحو اثنتى عشرة سنة وحملت جثّته فدفنت بروضة الوليّ الشهير ابيّ العباس السبتيّ تحت المكتب المعلّق هنالك على المسجد الجامع وقد رمز قيام ابي محلّى ووفاته الشيخ الفقيه الصدر ابو العبّاس احمد المريدي المرّاكشيّ رحمه الله فقال قام طيشاً ومات كبشاً ولا يخفى ما فيه بعد افادة التاريخ من حسن التمليح وبديع التورية وزعم اصحابه انّه لم يمت ولكن تغيّب وحدّثنى بعض من اثق به انّ اهل وادي الساورة الى الان منهم من هو على هذا الاعتقاد والحول والقوّة بالله ولمّا قتل ابو محلّى دخل يحيي مرّاكش واستقرّ بدار الخلافة منها والقى بها عصا تسياره ورام ان يتّخذها دار قرار كتب له في ذلك زيدان وهو يقول له ان كنت انّما جئت لنصرتي وكفّ يد ذلك الثائر عنّى فقد ابلغت المراد وشفيت الفؤاد وان كنت رمت ان تجرّ النار لقرصك وتجعل الملك من قنصك فاقرّ الله عينيك به فتجهّز يحيي للرجوع لوطنه واظهر العفّة عن الملك وانّه انّما جاء ليدافع عن الملك الذي بيعته في عنقه وانقلب لبلاده ورجع زيدان لمرّاكش وقد قيل انّ يحيي رام الملك وانّ اجناده من البربر لم يساعدوه على ذلك في قضيّة طويلة والله وليّ التوفيق بمنّه وكرمه

ذكر الخبر عن بقيّة احوال يحيي بن عبد الله

وشيء من التعريف به وما يناسب ذلك

هو يحيي بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الداوديّ المثّانيّ الحاحيّ وكان جدّه سعيد رحمه الله واحد وقته علماً ودِيناً وهو الذي احيا السنّة بسوس

وانتعش به الاسلام فيه وقال فيه سيّدي احمد بن موسى السملالي ما ولد النساء قبله ولا بعده مثله واجمع الناس على جلالته وديانته وكان من اهل العناية قال لفقرائه يوماً اتعرفون ما يعنى بكم شيخكم يوم القيامة قالوا لا فقال لهم يحضر لكم عند الميزان فمن فضلت له منكم فضلة ياخذها فيردّها على من احتاج اليها من اخوانه حتّى اذا لم يبق الّا من قصر به اعماله فيقف لكم عند الصراط حتّى تجوزوا عن آخركم وكراماته اكثر من ان تحصى اخذ عن التبّاع وتوفّى سنة ثلاث وخمسين وتسعماية ولمّا مات جلس ولده سيّدي عبد الله في مكان ابيه وجرى على نهجه وسبيله بل كان بعض الناس يفضله على ابيه وكان رحمه الله عالماً عاملاً خاشعاً صالحاً ناصحاً كان يقول ما عقلت على مخالفة لله تعالى ارتكبتها ولا اذيت حيواناً ولا نملة قال في بذل المناصحة لم ار احداً ولا سمعت باحد من المنتسبين يهتمّ بدين اصحابه وتعليمهم مثله حتّى كان يعيّن للحرّاثين للزاوية من يقوم لهم بوظيفة الماء اذا حان وقت الصلاة فياتيهم بماء وصطل ونار الى محلّ الحرث فيسخن لهم الماء ويتوضّئون واحداً بعد واحد ويصلّون جماعة ووضع تاليفاً في اهوال الاخرة يقراه على الزيارة بالعربيّة والعجميّة وكان لا يصل اليه احد الّا في الليل وما برز لاحدهم بالنهار قط الّا مرةً واحدةً ويذكر انّ شيخه سيّدي احمد بن موسى اوصاه بذلك وكراماته رحمه الله كثيرة ولعلّنا نلمّ بشيء منها في غير هذا الكتاب واخذ عن سيّدي احمد بن موسى وعن سيّدي عبد الله الهبطي وهو معتمده في الطريق وعن محمّد بن ابراهيم التمنارتي وعن الزقاق والونشريسيّ وغيرهم وتوفّى عام اثنى عشر والف ودفن برداعة من جبل درن حيث كانت زاويته بموافقة السلطان الغالب بالله عليها وقد كان سعى به للمنصور لمّا كثرت اتباعه واشتهر امره وخوّفوه منه فبعث له قائده منصور بن عبد الرحمن العلج ليقبضه فانجاه الله منه ولمّا مات جلس ولده يحيى هذا موضعه ونهج سبيله وكان يحيى فقيهاً مشاركاً رحل لفاس واخذ عن اشياخها كالمنجور وغيره وعن الولي العارف

بالله العالم الشهير سيّدي احمد بن محمّد المعروف بادبال السوسانيّ دفين درعة وهو معتمده اخذ عنه كثيراً من الفنون واجازه في علم الحديث اجازة عامّة قال صاحب الفوائد الجمّة كان يحيي مشاركاً في الفنون من حديث وفقه ونحو وتصريف وتصوّف حدّثني انّه راى ابا هريرة رضى الله تعالى عنه في النوم وهو ادم اللون ربعة شديد الحمرة فقلت له ما اسمك قال عبد الرحمن بن صخر او عبد الله بن صخر الدوسيّ الذي سمعتم به فقلت احضرت انشقاق القمر فقال لم احضره ولكنّه صحيح فطلبت الدعاء منه ووضعت يده على وجهي تبرّكاً بها فبعد ان فقت من نومي فبحثت عن اسلامه فوجدته تأخّر عن انشقاق القمر قال وانشدني لنفسه

يا ابا زيد ليس مثلي يسمو عن حديث يرويه مثلك عنه
انت ضيف الدنيا فخفّف عيوبا من قراها واخش الردى من لدنه

وكان يحيي شاعراً محسناً وله قصيدة لاميّة في التهنية غالبها مجنسة وشرحها في نحو كرّاسة وسمّاه الرشفة الهنية من رسالة التهنية وله نظم في الشهداء على بحر الرجز وحدّثني صاحبنا القاضي ابو زيد السجتانيّ انّه وقف على تاليف كبير مشتمل على ما وقع بين يحيي وابي محلّى من القصائد في غرض الهجاء وغيره قال واسم هذا الكتاب التجلّي فيما وقع بين يحيي وابي محلّى وكانت ليحيي شهرة عظيمة بالصلاح واتباع كثيرة كوالده وجدّه وتوجّهت لزيارته الامم وركبت لها النجائب الاّ انّه وقع له قريب ممّا وقع لابي محلّى فتصدّر لامور الملك ودخل في احوال السلطنة فتكدّر مشربه وانكسف بدره ولم يشعر انّ ذلك من مكائد ابليس اللعين ومن دقائق مكائده وقد قال بعض العلماء انّ الرياسة اذا سكنت قلب الانسان لا تقصر به عن ذهاب راسه ولذلك قال صاحب الفوائد في حقّه بعد ما تقدّم ما صورته قام بجمع الكلمة والنظر في مصالح الامّة واستمرّ به علاج ذلك الى ان توفّي ولم يتمّ له امراً . وكان لمّا

رجع لسوس بدا له في طلب الملك وجمع الكلمة لما راى من افتراقهما في حواضر المغرب وبواديه وذهب لتارودانت فتغلّب عليها وملكها ووقعت بينه وبين ابي الحسن علىّ حفيد الولىّ الصالح سيّدي احمد بن موسى السملالىّ وقائع تشيب النواصى ومعاريك يهرم لها الرضيع ولم يزل مصمّاً على طلب جمع الكلمة الى ان توفّى رحمه الله ليلة الخميس السادس من جمادى الثانية من عام خمسة وثلاثين والف بقصبة تارودانت وحمل من الغد لرباط والده وجدّه فدفن بجنبه وكان يراسل زيدان وينصحه ويجير منه من استجار به وكان زيدان يتحمّل من ذلك امراً عظيماً وقد وقفت على رسالة ليحي بعث بها لزيدان من نمط ما ذكرناه وهذا نصّها من يحي بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم كان الله له بجميل لطفه دائماً امين اللهمّ انّا نحمدك على كلّ حال ونشكرك يا وليّ المؤمنين على دفع الاواء والمحال ونصلّى ونسلّم على صفيك افضل من شدّت له الرحال نستوهبك يا مولانا جميل لطفك وجزيل فضلك في المقام والترحال عائذين بوجهك الكريم من مواخذتنا بسوء اعمالنا يا شديد المحال هذا وسلام الله الاتمّ ورضوانه الاعمّ ورحمة الله تعالى وبركاته على الهمام العالي المقام المولويّ الامام العلويّ كيف انتم وكيف حالكم واحوالكم مع الزمان الذي شمر عن ساقه لسلب الاديان والحّ في اقتضائها بهواه على كلّ مديان فانا لله ولا قوّة الّا بالله وهو حسبنا ونعم الوكيل وبعد فالباعث به اليكم في هذه البطاقة امور ثلاثة مدارها على قوله صلّى الله عليه وسلّم الدين النصيحة فقيل لمن يا رسول الله فقال لله ولرسوله ولخاصّة المسلمين ولعامّتهم امّا الاوّل فبيان سبب الركون اليكم والى جانبكم الثاني الحامل على دفع مناويكم الثالث ملازمة نصحكم وتذكّركم والضجر ممّا يصدّ من اعوانكم للرعية امّا الامر الاوّل فله اسباب كثيرة منها مراعاة الجناب النبويّ الكريم في اهل بيته ورضى الله عن ابي بكر الصدّيق القائل ارقبوا محمّداً في اهل بيته والقائل لقرابة رسول الله صلّى الله عليه وسلم احبّ الىّ من اصل قرابتى

يا اهل بيت رسول الله حبّكم فرض من الله في القرءان انزله
يكفيكمُ من عظيم المجد انّكم من لم يصلّ عليكم لا صلاة له

ومنها النصح لخاصّة المسلمين الذي هو الدعاء بالهداية لهم وردّ القلوب النافرة اليهم ونصحهم بقدر الامكان مشافهة ومراسلة وقد بذلنا الجهد في الجميع اخلص الله القصد في الجميع واماّ الامر الثاني فلمّا جرى القدر بتغلّب ذلك الانسان المسلّط على الرقاب والحريم والاموال وادخل بتاويلاته البعيدة عن الصواب ما ليس في المذهب وتعدّى ضروب الولاة الى سائر الرعية فاضلها ومفضولها ومدّ مع ذلك يد الوعيد المذكور بالايمان الينا في الانفس والاموال فناشدناه كما تقرّر في فتاوي الايمّة رضى الله عنهم حيث توفّرت فيه فصول هذا الصدر كلّه يشاهد العيان وكان الامر كما قدّر والله الامر من قبل ومن بعد واماّ الامر الثالث فالكتاب والسنّة والاجماع امّا الكتاب فسورة العصر قائمة بالبرهان في كلّ اوان وعصر وقد قال تعالى في قضية كليمه ربّ بما انعمت على فلن اكون ظهيراً للمجرمين وقد استشهد به بعض العلماء في برى قلم الكاتب للامراء المتقدّمين وحسبنا الله ونعم الوكيل وقوله جلّ من قائل وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واماّ السنّة فالحديث الاوّل قوله المعاون شريك وقوله من راى منكم منكراً فليغيّره بيده فان لم يقدر فبلسانه فان لم يقدر فبقلبه وذلك اضعف الايمان وقد كنّا مقتصرين على التغيير باللسان والقلم لكون التغير العملىّ اليكم حتّى جذبتمونا اليه وذللتمونا بارتكاب اصعب مرام عليه وقوله من اعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله وقد قال المواق في شرحه على المختصر من اعان على عزل انسان وتولية غيره ولم يامن سفك دم مسلم فهو شريك في دمه ان سفك ثمّ اتى بالحديث المتقدّم استعظاماً لذلك الامر الفضيع فانّا لله وانّا اليه راجعون على انا انخدعنا بالله حتّى نامن بالقطع لسفك الدماء

اذّاك حيث كتبت لنـا مراراً وامنت وارسلت وكنت اتخوّف من هذا الواقع بازمّور واسفى ومرّاكش والغرب ولذلك كنت الححت عليكم في تقرير العهد حتّى اتاني القائد عبد الصادق بمصحف ذكر انّه لسلطـان تلمسان في جرم صغير وقال لي امرني السلطان ان احلف لك فيه نيابة عنه على بقائه على العهد فيما بينك وبينه بتامين كلّ من امّنته وامضاء كلّ ما رايته صلاحاً لامّته صلّى الله عليه وسلّم ثمّ لم اكتف حتّى اتى القاضي فكتبت لي ما رايت فيه الصلاح امضيته وانّك امّنت كلّ من امّنته ثمّ بعد استقرارك في دارك كتبت لي كتاباً بانّك باق على ما تعاهدنا عليه معك وانّ الامور كلّها على معيار الشرع فما راعنى الّا وقد اخفرت في ذمّة الله وامانى الذي عقدته للناس فمن مأسور ومقيد ومطلوب بمال ومطرود عن بلدة آلٍ واخبار اخر ترد علينا من جهة السواحل انّ النـاس تباع فيهـا للعدوّ دمّره الله ولم تر من اهتبل بذلك ممّن قلدتموه امور الثغور فلم ندر هل بلغك خبر ذلك فتسقط عنّا ملامة الشرع ام لم يبلغك فاعلمنا لله تعالى لتطمئن قلوبنا فانّي كاتبتك في ذلك فلم ار جواباً فقضيت والله من الامر عجباً فان عددت مـا منّ الله به عليك ورجوعك الى دار والدك واجتماعك بسرير ملكك آمناً من قبل النعم بما تقيّد به في كريم علمك وان رايته بنظر اخر فان لله مـا في السماوات وما في الارض وامّـا الاجماع فلم نر من العلمـاء من نهى عن نصيحة خاصّة المسلمين وتنبيههم على مـا يصلح بهم وبالرعية بل عدّوه من الدين للحديث الاوّل وغيره وامّـا ما استشعرناه من امتعاضكم من عدم الانة القول في مكاتبتنا لكم فما خاطبناكم قط رعياً لذلك ولو بنصف ما خاطب الايمّة الاوّل به اهل زمـانهم اتكالاً على مطالعتكم لكتبهم وعلمكم بما لا نعلمه بذلك ولم نروه ويكفيكم نصح الفضيل بن عياض وسفيان الثوري وامامنا مالك رضى الله عنهم لمعاصريهم من الولاة وفيهم من بكى وانتفع ومن غشى عليه وتوجّع ومن ندم واسترجع الى غير ما ذكر على اختلاف الاعصار وتنوّع الدول فبذلك اقتدينا وبمـا كان عليه اشياخنا واسلافنا لكم

ولاسلافكم كالفقيه شيخ والدنا رحمه الله سيّدي عبد الله النهبطيّ لجدّكم المرحوم بكرم الله تعالى فطمعت نجح النصح دنيا واخرة فهذا اصل قضيتنا معكم وهلمّ جرّا والذكرى تنفع المؤمنين على كلّ حال والحمد لله والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم وآله خير آل وبتاريخ اواخر ربيع النبويّ الشريف وكتب عن اذنه رضى الله تعالى عنه عبد ربّه محمّد بن الحسن بن بلقاسم لطف الله به والحمد لله ربّ العالمين فاجابه زيدان بما نصّه بسم الله الرحمن الرحيم وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً من عبد الله تعالى المقترف المعترف زيدان بن احمد بن محمّد بن محمّد بن عبد الرحمن الى السيّد ابي زكرياء يحيي ابن السيّد عبد الله بن السيّد سعيد بن عبد المنعم اعاننا الله تعالى واياكم على اتباع الحقّ ونعوذ بالله من شرور انفسنا ومن سيئات اعمالنا سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فقد ورد علينا كتابكم ففضضنا ختامه ووقفنا على سائر فصوله ثمّ انّنا ان جاوبناكم على ما يقتضيه المقام الخطابي ربما غيّركم ذلك وادى الى المباغضة والمشاحنة ويحكى عن عثمان رضى الله عنه انه بعث لعليّ كرّم الله وجهه واحضره عنده والقى عليه ما كان يجد من اولاد الصحابة الذين عصوصبوا باهل الردّة الذي كان رجوعهم الى الاسلام على يد الصدّيق وهو في ذلك لا يجيبه فقال له عثمان ما اسكتك فقال له يا امير المؤمنين ان تكلّمت ما اقول الّا ما تكره وان سكتّ فليس لك عندي الّا ما تحبّ ولكن لمّا لم اجد بدّاً من الجواب ارى ان اقدّم لك مقدّمة قبل الجواب وذلك انّ الحجّاج لمّا ولّاه عبد الملك بن مروان العراق وكان من سيرته ما يغنى اشتهاره عن تسطيره هنا فتاوّل ابن الاشعث الخروج عليه وتابعه على ذلك جماعة من التابعين كسعيد بن جبير وامثاله من اولاد الصحابة ولمّا قوى عزمهم على ذلك استدعوا الحسن البصريّ رضى الله عنه فقال لا افعل فانّي ارى الحجّاج عقوبة من الله فنفزع الى الدعاء اولى قال بعض فضلاء العجم يؤخذ من هذا انّ الخروج على السلطان من الكبائر وجواز المقام معه تحت ولاية الظلم والجور وقد علمت

ما كان من امر عبد الرحمن بن الاشعث وسعيد وامثالهما وقضية اهل الحرة لمّا اوقع بهم جند يزيد بن معاوية بالحرم الشريف ما اوقع ولمّا بلغه الخبر وهو بالشام انشد

ليت اشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الاسل

وشاع ذلك عنه وذاع وكان ذلك على عهد اكابر الصحابة واولادهم ولا تعرّض احد منهم للنكير عليه ولا تصدّى للقيام بكلام وامّا ما يرجع الى جواب الكتاب فامّا ما حكيت عن الصدّيق رضى الله عنه في اهل البيت والاحاديث الواردة في انّه يجب احترامهم وتعظيمهم وتبجيلهم لاجل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فان كان يجب عليكم تعظيمهم فان تعظيمهم يجب علىّ اولاً واولاً عملاً بقوله تعالى قل لا اسالكم عليه اجراً الّا المودّة في القربي واجرى سبحانه وتعالى عادة حكمه ما تصدّى احد لعداوة اهل البيت النبويّ الّا اكبه الله لوجهه وامّا ما اردتم من حديث النصح فانّي والله احبّ ان تنصحنى سرّاً وعلانيةً مع زيادة شكري عليه واراها لك مودّة واعدّها محبّة ولكن افعل من ذلك ما اقدر عليه لانّ الله سبحانه وتعالى يقول لا يكلّف الله نفساً الّا وسعها ولهذا قال اكثر العلماء في صدور تصانيفهم ولم ال جهداً في كذا لانّ النفوس الشريفة العليّة لاتترك من فعل الخير والجدّ في اكتسابه الا ما عزّ تناوله وصعب اكتسابه عليها وامّا ما ذكرتم من امر ابي محلّى وسيرته وما كان تسلّط عليه امّا ما كان من عدم استنهاضكم اليه اما تذكر استنهاضنا لكم المرّة بعد المرّة وتكرّرت في ذلك اليكم الرسل حتّى اجبت اليه ولا تحتاج فيه لاقامة حجّة غير كونه خرج عن الجماعة وقوله عليه السلام من اراد ان يشقّ عصاكم فاقتلوه كائناً من كان والّا فلو دخل الملك من بابه وبايعه اهل الحلّ والعقد واخذ ذلك بوسائط مثل بيعة جدّنا المرحوم الذي

تظافرت عليه علماء المغرب واهل الدين المشاهير ولو كان وصل لذلك بمثل هذه الوسائط لا يجب حربه ولا القيام عليه بما ذكرتم لانّ السلطان لا ينعزل بالفسق والجور والاّ فانّ الصحابة رضى الله عنهم في زمن يزيد بن معاوية لا يحصى عددهم وما تصدّى احد منهم للقيام عليه ولا قال نعزله والاّ فانّهم لا يقيمون على الضلالة ولو نشروا بالمناشر وامّا ابو محلى فبمجرّد قيامه يجب عليك وعلى غيرك اعانتنا عليه لانّك في بيعتنا وهى لازمة لك فالطاعة واجبة عليك واعلم ايضاً انّ والدك افضل منك بدليل ابؤكم خير من ابنائكم الى يوم القيامة وكان عمّنا عبد الملك رضى الله عنه وسمح له على ما كان عليه واشتهر به اعلاناً وكان والدك في دولته وبيعته ووفد عليه ولم يستكف من ذلك ولا ظهر منه ما يخالف السلطنة ولا انكر عليها ولا تعرّض لما يسوء ملك الوقت ولا سمع ذلك منه فان كان راضياً بفعله فهو مثله وان لم يكن راضياً فما وجه سكوته والوفادة عليه وقد تحقّقت وعلمت انّ ولاية احمد بن موسى الجزولّي كادت ان تكون قطيعة واشتهر امره عند الخاصّ والعامّ حتّى اطبق اهل المغرب على ولايته وكان على عهد مولانا عبد الله الغالب بالله بزّد الله ضريحه وكان المولى المذكور على ما كان عليه واشتهر امره وما برح الشيخ المذكور يدعو له ولدولته بالبقاء ويظهر حبّه وكان المولى المذكور يعزل ويولّي ويقتل وغير ذلك وكان شرد منه لزاوية المرابط الاندلسيّ وولد ازيك وامثالهم وكان يتقدّم للشفاعة ويشفع ولا يتعقّب ولا يعاتب ولا يبحث على ما وراء ذلك باقٍ على عهده ومودّته وكان المولى المذكور بعث لابن حسين يسدّ داره فسدّها وما فتحها حتّى امره بفتحها ولا استعظم احد ذلك ولا اكثر فيه ولا جعله سبباً لفتح باب الفتنة وكان قوّاد المولى المذكور مثل وزيره ابن شقرا وعبد الكريم بن الشيخ وعبد الكريم بن مومن العلج والهبطّى والزرهونّي وعبد الصادق ابن ملوك وغيرهم ممّن لم يحضرني ذكرهم لبعد عصرهم قد انغمسوا في شرب الخمور واتخاذ القيان وبسط الحرير وغير ذلك من الات الفضّة والذهب وكانوا

في عصر احمد بن موسى المذكور وابن حسين الشرقيّ وابي عمر القسطليّ ومحمّد بن عبد الله التمارتيّ والشطيبيّ وغير هولاء من المشائخ واهل الدين الذين لا يسع من يدّعي هذه الطريقة التقدّم عليهم ولا اكتساب الفضيلة دونهم فاحسنوا السيرة ولا تعرّضوا للسلطنة ولا سمع منهم ما يقدح في ولاة الامر وقاداة الاجناد ممّن ذكر الذين كان الملك يدور على ايديهم ويرجع في تدبيره اليهم ومثل من ذكر من الاولياء كان علاّمة الزمان واوحد وقته شيخ مشائخ افريقية وبعض اهل المغرب عبد العزيز القسنطينيّ الشيخ المتكلّم بالصوفية صاحب الايات البينات قد كان من سكّان تونس وكان ملك تونس ومن انضاف اليها من عمالتها على الفساد الذي لا يحصى واشتهر امرهم حتّى عرفوا به في المشارق والمغارب ولم يبرح الشيخ المذكور من بينهم ولا تصدّى لتغيير المنكر ولا للامر بالمعروف حتّى قبضه الله اليه واممّا ما ذكرتم من انّ من اعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه ايس من رحمة الله فهذه حجّة عليك لا علينا لانّي ما سعيت في قتل احد ولا قتل من قتل الاّ بامر القضاة واهل العلم ان كان واعلم انّه اذا كان هذا يكون وحيداً في قتل الواحد فما بالك بمن يريد فتح باب الفتنة حتّى لايقف القتل على المائة والمايتين والالف والخمسة الاف ونهب الاموال وكشف الحريم وغير ذلك اما تعلم انّ ايّام فتنة ابي محلّى قد هلك من النفوس والاموال بسببها ما لا يحصى عدده حاسبٌ ولا يستوفى نهايته كاتب وكان ذلك على رقبته لانّه هو المتسبّب الاول الفاتح ابواب الفتنة لانّه كان يقتل كلّ من انتمى الينا حتّى قتل بسببه في يوم واحد خمسماية قتيل ولولا ابو محلّى ما قتلوا واعظم في حرمة النفوس من هذا قوله تعالى من اجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل انّه من قتل نفساً بغير نفس او فساد في الارض فكانّما قتل الناس جميعاً وليس في قول المواق ما يحتجّ به على السلطان وانّما تكلّم في اصحاب الخطط على الترتيب الذي كان على عهده مثل اصحاب الشرط كصاحب شرطة السوق الذي ينفذ عن القاضى وغير ذلك

من الولاة وولاية ابي محلّى لا تعدّ ولاية حتّى يعدّ عزله عزلاً وما عند المواق وغيره وقفنا عليه وعرفناه وتلقّيناه من الشيوخ الجلة وعرفنا ما عند الشافعيّة والحنفيّة ودرّسناه المرّة بعد المرّة ولست ممّن ينطبق عليه قوله اشقى الناس عالم لم ينفعه الله بعلمه ولكن لماذا تجنح لقول المواق لغرضك وتجعله حجّة ولم تجبنا نحن فيما كتبنا اليك فيه في يونس اليوسى وقلنا لك قال صلى الله عليه وسلّم الحرم لا يعيد عاصياً وقال الابيّ وهذا يحتجّ به على اهل الزوايا واضربت صفحاً عن الجواب وليس ذلك من ادب الجدال ولكن اخبرنا عن الوجه الذي منعت به يونس اليوسيّ من الشرع فانّ متاعنا عنده واماء اهلنا في داره الى يوم الوقعة وترتّب في ذمّته للمسلمين من الاموال والدماء فان كنت ممّن يريد العدل فهلاّ عدلت فحينئذ تعلم انّك لا تريح جهته ولا تذهب بك النفس مذهبها لاجرم حينئذ تكون عند ما تريد ومع هذا لمّا مسكنا زوجته وكتبت لنا فيها فسرّحناها ساعة وصول خطابك من غير توقّف فلو كنت عنادياً لعبثت بها عبثه هو باماء اهلى واهل داري على انّي ما رددت قط شفاعتك مذ عرفتك بعثت لي على ابراهيم بن يعزى فسرّحناه لغرضك على انّه ترتّب في ذمّته ما ينيف على خمسين الف اوقية وذلك المال انّما يقال له مال بيت مال المسلمين وانّما كان يجب تخليده في الحبس واهل الحصن اخرجناهم منه عن اخرهم وانفدتم كتابكم في ردّهم فامرنا بردّهم عن اخرهم وابن يعقوب اوزال حاكم البلد وشبه الخليفة تركناه على دارنا وحرّك من غير اذننا ولا مشورتنا وبعثنا مكانه فانقدت الكتاب فيه فردّ لمكانه ما هو الامر الذي سافرت كتبك فيه الاّ واسرعنا اليه خفافاً وامّا مسالة اهل ازمّور لمّا جاء كتابكم عزلنا صاحبه وسرّحنا من كان عنده ورددنا الخيل وقضية الخاشة الناس في شانهم بالاجتهاد وقضية العرب اعلم انّ العرب قد افسدوا الارض واستطالوا سواء هذه البلاد والغرب والذي يليق بهم ما افتى به سحنون في عرب افريقية والمغرب ولو طالبناهم بمجرد العشر هذه مدّة الفتنة بالمغرب لاذى ذلك على اموالهم والناس خرجت عن اطوارها

واحبّوا الفتن طلباً للراحة انظر كتاب الافادة للقاضي واستطالتهم فيه عليه في قضية شرعيّة مصرحة في رسمها القديم على انّهم اضعف النـاس قلوباً انظر ما صدر منهم فما بالك بالعرب الذين خربوا البلاد وتساوي الشيخ والصغير في ذلك فان كنت تصغي لمقالتهم واسعاف شهواتهم والتعرّض للسلطان دونهم فهذا نفس خراب العالم وطالع كتاب صاحبنا من عند الرحامنة وما صدر بخبركم ورايت ان اقدّم لك مقدّمة امام هذا وان كانت ادبيّة قيل لابن الرومىّ وهو علىّ بن العباس لِمَ لم تقل كعبد الله بن المعتزّ

كانّ اديورتنـا والشمس فيه كالية
مداهن من ذهب فيهـا بقـايا غاليـة

فاجاب بان قال لا يقدر هو ان يقول مثل قولي في وصف الرقاقة

ما انسى لانسى خبازا مررت به يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر
مـا بين رويته في كف غرته وبين رويتهـا قوراء كالقمر
الا بمقـدار مـا تنداح دايره في صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

وقال كلّ منّا يصف اوانى بيته وربّ البيت واهل مكّة ادري بشعوبها والصيرفى اعرف بنقد الدينار وقضية الخضر والكليم صلوات الله على نبيّنا وعليهما السلام فيها كفاية لمن يعتبر في خرقه السفينة وقتله الغلام واقامته للجدار والكليم يردّ عليه في كلّ ذلك حتّى انباه الله بسرّ ما لم يعلم على انّ علم الخضر في علم موسى كحلقة ملقـاة في فلات من الارض هكذا قال بعض العلمـاء وقال بعضهم كلّ منهم على علم خصّه الله به ومن هنا جوّز ابن العربي الحـاتمىّ في بعض كتبـه واحسب انّ ذلك في كتـاب الفصوص انّ الوليّ الذي يتّخذه الله ويصطفيه بمحبّته يطلعه على علم لم تطـلعه الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم

فقال مشيراً لنفسه طالعني الله على علم لم يطالعه ادم فمن دونه واعلم انّ السلطنة لها اشراط لا بدّ منها وسياسة يكره ظاهرها ولكن نرجع الى غرضك ومرادك اخبرنا كيف تحبّ نسلك مع الناس في الغرب فان كنت تحبّ نسلك فيهم مسلك مولاي عبد الله فالزمان غير الزمان والاسعار قد طلعت وبلغت النهاية والله تبارك وتعالى قد بعث انبيائه وانزل كتبه بحسب ما يقتضيه الزمان وهذا يعرفه من خالط الشرائع والكتب المنزلة واخذ العلم من افواه الرجال وادبته مجالس العلم ونحن نلخص لكم الكلام على بعض ما اورد الناس في الخراج امّا ما بنوا عليه فرضه في صدر الاسلام وفي الدول العظام فلا نطيل بذكره لشهرته وامّا ما في الغرب خصوصاً فاوّل من فرضه عبد المومن بن علىّ وجعله على اقطاع الارض بناء على انّ الغرب فتح عنوة واليه ذهب بعض العلماء ومنهم من يقول انّ السهل فتح عنوة والجبل صلحاً فاذا تقرّر هذا علمت انّ اهل هذا العصر قد بادوا واندثروا فيكون السهل كلّه ارثاً لبيت المال تعيّن ان يكون الخراج فيه على ما يرضى صاحب الارض وهو السلطان والجبل تتعذّر معرفة ما كان الصلح عليه ولا سبيل الى الوقوف عليه فيرجع للاجتهاد وقد اجتهد سلفنا الكرام رضوان الله عليهم في فرضه لاوّل الدولة الشريفة على وفق ائمّة السنّة ومشائخ اهل العلم والدين في ذلك العهد فجرى الامر على السنن القويم الى ان هبّت عواصف الفتنة لايّام ابن عمّنا صاحب الجبل وازاله مولانا الامام وصنوه المرحوم عن حواضر المغرب وسبيله عند الزحف بالاتراك وامتدّت به الفتنة في الجبل الى ان هلك مع النصارى دمّرهم الله في الغزوة الشهيرة وجاء الله بمولانا المقدس بالجبل العاصم للاسلام من طوفان الاهوال فقدر رضى الله عنه الاشياء حقّ قدرها ورأى المغرب غبّ تلك الفتن قد فغر افواهه لانتهامه عدوّان عدوّ عظيم من الترك وعدوّ الدين الطاغية فاضطرّ رحمه الله الى الاستكثار من الاجناد لمقاومة الاعداء والذبّ عن الدين وحماية ثغور الاسلام فدعا تضاعف

الاجناد الى تضاعف العطاء وتضاعف العطاء الى تضاعف الخراج وتضاعف الخراج الى الاحجاف بالرعية والاحجاف بالرعية امر يستنكف رضى الله عنه من ارتكابه ولا يرضاه في سيرة عدله طول ايّامه فلم يبق له حينئذ الّا ان امعن النظر رحمه الله في اصل الخراج فوجد بين السعر الذي بنى عليه في قيمة الزرع والسمن والكبش الذي تعطى الرعية منذ زمان الفرض وبين سعر الوقت اضعافاً فحينئذ تحرى العدل فخيّر الرعية بين دفع كلّ شئ بوجهه او دفع ما يساوي سعر الوقت فاختاروا السعر مخافة ان يطلع الى ما هو اكثر فاسعفهم رضى الله عنه وعرف الناس الحقّ فلم ينكره احد من اهل الدين ولا من اهل السياسة ليت شعرى لو طالبنا نحن الرعية اليوم بسعر الوقت الذي طلع الى اضعاف مضاعفته ماذا تقولون وقد انتقدتم علينا ما هو اخفّ من ذلك والحاصل راجعوا رضى الله عنكم ما عند الامام الماوردي في الاحكام السلطانيّة في ضرب الخراج فقد استوفى الكلام في ذلك وامّا ما تقتضيه من العجب لتعطيل اجوبتنا عنك نحن نراجع اقلّ منك ولكن كتابك اكّدت مبناه على قضية اهل ازمور فانفذنا من اخرج الذي كان به وامضاه وسرّح من كان عنده فتوقّف الجواب حتّى يرجع الخديم فحينئذ اجبناكم بما وصلكم وتعجيل الاجوبة وبطؤها فاعلم انّ الذي يقتضى ذلك امور منها ان يكون ما سمعت ولا بلغنى ان يكون الامر الذي ورد الخطاب فيه منكم فتوجّه للبحث فيه والفحص عن اسبابه فربّما اوجب ذلك البطء بحسب الامكان والبلدان فيكون جوابنا على اساس وبيان وان كان عندنا ما ورد فيه خطابكم فالجواب لا يتاخّر وقد وقع هذا منّا غير مرّة وكون تعطيله منشاه ما منّ الله به علينا من رجوعنا الى سرير ملكنا واجتماعنا بابناء امّنا فاعلم انّ اهل المغرب لما تمالئوا علىّ وخرجت للمشرق والتقيت بالترك والاروام جالسوني وجالستهم وخاطبوني وخاطبتهم منهم مشافهةً ومنهم مراسلةً وكنت ايّام مقامى بارضهم كمقامى على سرير ملكى لانّ كبيرهم وصغيرهم ورئيسهم ومرءوسهم كان يتتبع فضلى ويمدّ كفّ رغبته لنعمتى وواسيت الجميع

عطاء مترفاً مع قلّة الزاد والذخيرة وترفّعت عن مراسلات الاماثل والاكابر من العجم والعرب ولا ركنت لاحد بل تجوّدت بما قدرت عليه من الاخبية حتّى جعلت محلّة برماتها وخيلها فتراموا علىّ العجم بالرغبة وبسطوا كفّ الضراعة في المقام عندهم والدخول في جملتهم وعرضوا علىّ الاقطاع السنية والبلادات الملوكيّة بلطف مقال وادب خطاب حتّى قال السلطان مراد رئيس المجاهدين وما مثلك يكون مع العرب ها نحن نخدمك باموالنا وانفسنا وبما لنا من السفن حيث اردت واحببت ولا انفصلت عنهم حتّى كتبت لهم بخطّى انّي نحمل اهلى وحاشيتى وارجع اليهم الّا ان تمكّن لي الدخول في الملك والغلبة على البلاد او بعضها وقد قفلت من عندهم ولم يتعلّق ثوب عفافي ما يشينه معهم ولا مع العرب ولكن ليس لاحد علىّ منّة ولا نعمة الّا فضل الله تعالى وكان فضل الله علينا عظيماً ثمّ انّي دخلت سجلماسة على رغم انف اهلها ووالياها ومنها دخلت للسوس وجعلت وليّ الله العارف بالله ابا محمّد عبد الله بن مبارك واسطة بينى وبين اخى حتّى اجتمعت باهلى ومالي وبعث اليّ الترك باحد بلكباش اسمه مصطفى صولحي الى السوس راغبين انجاز الوعد فجنحت للمسير اليهم فرايت الاهل والاتباع قد عظم عليهم الامر واستعظموا الخروج فاسفعت رغبتهم في المقام في المغرب وشيعت الرسول قافلاً الى قومه من سجلماسة عند الدخول الثاني لها ومغالبة اهلها عليها وعززته برسول من عندي اليهم بتحف واموال ورد بها مع رسولهم ثمّ انّي اقتحمت مرّاكش مع اهل فاس على كثرة عُدَدهم وعددهم وقلّتى ووحدتي وفتح الله علىّ ثمّ خرجت للسوس مرّة اخرى واوقعت بمولاي احمد الشريف وجموع مرّاكش وقد تعصّبوا عليه لانّهم شيعة جدّه ففضضته على رغمهم ونازلته بالسهل والحزن حتّى مكّن الله منه وحكم بينى وبينه ثمّ نجم الغوى ابو محلّى وغلبت على الراي وقد قال من هو افضل منّى مولانا علىّ كرّم الله وجهه لا راي لمن لا يطاع ودخل هذه البلاد وخرجت انا للسوس ربما تجتمع الينا قبائلنا في المكان الذي كان اجتماعهم فيه الى ان بلغتهم وقصد اليهم

ابو محلّى فقاتلوه ورحل عنهم بعد ان اثخنوا فيه بالقتل ثمّ وافيتهم بمكان والحرب بيننا سجال فهل سمعتم خلال هذه الاحوال انّي احتجت لاحد فيما قلّ اوجلّ وهذا كلّه بحيث لا يخفى عليك اللهمّ الّا ان تعتدّ الوفادة التى وفدنا عليك من قبيل الاضطرار والاحتياج فلادري على انّي ما قصدتك لطلب دنيا لانّي كنت اسمع ما انت عليه من متانة الدين والصلاح والاقبال على طاعة الله والتمسّك بسنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لاغرو من كان هذا وصفه كان جديراً بان يقصد للدعاء والتبرّك ولاصلاح القلب ولا شكّ انّنا نزلنا دارك وحللنا مكانك ولمّا وقع الاجتماع معك جرت المذاكرة في ابي محلّى وغيره حتّى كتبت الكتاب الذي علمنا عليه وها هو بيدي بخطّك فان نسينا بعض لفظ ممّا فيه ولا فعلنا فاخبرنا به نستدركه وهذا مرّاكش الذي ذكرتم قد كنت فيه كما ذكرتم ووقفت الى عبد المومن بن ساسى وعدته مرّة اخرى في مرضه وهل قصدته لطلب دنيا او عرفته لاجلها ومحمّد ابو عمر لمّا وقفت بالمدرسة التى من بناء مولاى عبد الله وقفت عليه في داره وكان ذلك انّما نفعله تاكيداً للمحبّة وزيادة في المعرفة بالله ولو علمت انّ ذلك يعدّ ويظنّ انّه نوع من الاحتياج والله ما كنت لاقف على احد ولو انّه يملكنى الدنيا بمدافرها لانّ الخير والشرّ بيد الفاعل المختار وهو اولى بالاضطرار اليه وامّا سربي فما تروّع قط حتّى يامن وامّا من كان في الدار التى ذكرتم فانّما هم اهلى ومتروك اعمامى وهذه الدار التى ذكرتم فيها نحن ننتقل منها لبعض البلاد المغربيّة البحريّة كما قلت لك ذلك مشافهةً ساعة قلت لي ينبغى للاسلاف بناء بالجبل لوقته وحكيت ذلك عن والدك وامّا ما اخبركم به القاضى عند ايّام ورودي لسوس وقت بلغنى كتابكم الذي نصّه قد اجتمعت اناس وفسدت النيات وتعيّنت المطامع واردنا تدبيركم لانّ الملوك اهل التدبير والمراد رجوعنا لاوطاننا من غير وصمة تلحق الجانبين فكلّ ما حمل فهو عنّى والتزمته الى الان الّا ماطرا علينا فيه النسيان ذكّرونا به فانّا لا نخرج عنه وامّا يمين المصحف

وانّي كنت حلفت فيه للقائد عبد الصادق فلا والله ما حلفت فيه ولا نحالف لاحد الى لقاء الله اما علمت انّي حضرت بيعة صاحب المغرب سمح الله له وحضر اولاد السلطان واستحلفهم له الاّ انا فانّه رضى الله عنه قال فلان لا يحلف ولا يحتاج اليه فما نامره به يفعله وعظم ذلك على اخوتي وظهرت في وجوههم الكراهيّة لاجله ولكن الذي قلت لابن عبد الصادق احلف للمرابط وانا اوفى لك به وما زلت على ذلك لانّ الذي كنت تقول ذلك الوقت اخاف ان تقع في اهل مرّاكش والاكابر ونحو هذا مثل حكومة عبد القادر ونحوها امّا اهل مرّاكش فما تعرّضنا لاحد حتّى تركنا متاعنا لاجلكم كولد المولوع وغيره وهذا الميدان والشعر ابعث من رضيت ينادي فيهم من له علينا حقّ ننصفه منه ومن خدّامي ايضاً وان كنت سمعت قضية منصور العكاري فالعكاري نزل اهلنا في خيمته عند وقعة راس العين فلمّا ارادوا الطلوع للجبل تركوا اكثر ما لهم في خيمته مع بعض الخدّام خوفاً من غائلة البرابر لما كان وقع منهم لبابا ابي فارس فاخذ سماطاً من ذهب يزيد على ستّين الف اوقية وكان ايّام ابي حسّون معه وفي جملته حتّى مات القائم دخل حجّته بانجاز عشرين الفاً والباقي حتّى يوديه على سعة وطلب ان يتعمّل ويتولّى الخطط لينتفع ويجمع بعض ذلك فصدقناه حتّى جاء ابو محلى ووقع ما وقع طلبناه بمتاعنا وهو لا يسعه انكاره وهكذا عبد الكريم الذي هو في زاويتك بنفسه يعلم انّ اخوته اخذوا لي سلعة في وسط حلّتهم وانا بين بيوتهم تزيد على خمسين الفاً واخذوا الابل وها نحن سكتنا عنهم ولا طلبناهم بها وايضاً ان قال لك انظر ما فعل باخوتي وكذلك تكاتبنا وانت لا علم لك باصل المسالة واما الاموال فانّ الله عزّ وجلّ وسع علينا من فضله فعندنا ما يكفي الخامس والسادس من الولد وعرفنا الناس وعرفونا وعاملناهم وعاملونا ولو اردت خمس مائة الف مثقال من صاحب افلامنگ او من الانجليز وكتبت لهم بذلك ما تانّوا في بعثه ولا لاذوا فيه بمعذرة وقد كفانا الله والحمد لله على ذلك واعلم انّ الظنّ فيك جميل ولولا

ذلك ما اعطيتك خمسة الاف مثقال وسمحت بالمال الذي حمل اليكم ابن عبد الواسع اخراً ولا بسلعة السفن وبهذا كلّه تستدل على صفاء النية وصالح السريرة والله سبحانه وتعالى يعلم ذلك وامّا الامتعاض من عدم الانة القول وحسن الخطاب كما قال الله تعالى وقولوا للناس حسناً وانّك لم تبلغ ولو نصف ما خاطب به الايمّة رضوان الله عليهم اهل زمانهم اتّكالاً على علمنا به فحسبي نصح الفضيل بن عياض وسفيان الثوريّ ومالك ابن انس رضى الله عنهم فهذه المسالة حسبي في الجواب عنك والسلام . وقد وقفت على رسالة كتب بها اليه القاضى العدل الفقيه الاجلّ ابو مهدي عيسى بن عبد الرحمن السجتانيّ وكان يحيي استشاره فيما عزم عليه اذّاك لانّه كان قاضياً بتارودانت فلم يوافقه وابى عليه من مساعفته على ذلك فغضب عليه يحي حتّى انّه امر بقتله غيلة فخرج من المدينة خائفا يترقّب فسلّمه الله منه وذهب حتّى نزل بمرّاكش وهذا نصّ الرسالة بسم الله الرحمن الرحيم وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلم يقول العبد الفقير الشديد الحاجة الى رحمة مولاه الغنّى به عمّن سواه السائل منه التوفيق واللطف في ظعنه ومأواه كاتبه عيسى بن عبد الرحمن عفا الله عنه وسامحه الحمد لله الذي جعل الصدع بالحقّ وظيف الرسل والانبياء واورثه بعدهم من خلقه فريقاً من العلماء العاملين الاولياء والصلاة والسلام على من اكد امر النصح وقال انّ الدين النصيحة فقالوا لمن يا رسول الله فقال لله ولرسوله ولايمّة المسلمين وعامّتهم والرضى عن آله وصحبه الذين سلكوا سبيله وانتهجوا من المناهج طريقه وعن التابعين وتابع التابعين لهم الى يوم الدين والفصل والقصاص بين الخليقة وبعد فانّي قفلت والحمد لله بسلامة وعافية الى حيّ وجدت اهلى واولادي مستوحشين البادية وان كانت محلّ سافى ومقرّ تلادي بعد ان الفوا الحواضر وطبعوا على طباعها فكانوا احقّ بها واهلها وكنت في غاية الضيق والتاسّف لما حلّ بالاولاد فتذكرت قول بعض فقهاء الاندلس لمّا نابه ما نابنى واصابه مثل ما اصابنى

أليس من القبيح مقام مثلي بدار الخسف منخسف الجمال
اخالط اهل سائمة ورعى وارتع بين راعية الجمال

فجلت بفكري وان كان الكلّ بقدر الله وارادته فرايت ان في ذلك القضاء لطف امر انتجه كما لا يخفى على ذي بصيرة ما حلّ بالمغرب من افتراق الكلمة وتلاعب شياطين الانس والجنّ بذوي العقول منهم فصاروا احزاباً وفرقاً فتبعت كلّ طائفة من هواها ما كانت تعبد حتّى اذا عرض لعاقل او عرض عليه سهم الاقلاع بادرت الشياطين فسدّوا عليه بابه ووارّوه باغوائهم وزيّنوا له انّ ذلك يشينه عند العامّة ويوجب له السقوط من اعيان الناس مع انّه لا يعدّه من السقوط الّا لوسواس الخنّاس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنّة والناس واين يغيب عن الموفق انّ السقوط من عين الله هو الطامّة الكبرى واين غاب عنه انّ العبرة بكتاب الله وسنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لا بكلام الهمج الرعاع ممّن لا يزال الشيطان يلعب به آخذاً بزمامه ساكناً على قلبه ولسانه واين يغيب عنه من كتاب الله فامّا من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هي المأوى وامّا من خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى فانّ الجنّة هي المأوى وقلت انّا لله وانّا اليه راجعون هذه مصيبة عظيمة نزلت بغربنا فافترق ملأؤهم وقتلت سراواتهم وانتهبت اموالهم وهتكت حرماتهم ومزقت اعراضهم وفسدت اديانهم واختلّت وبعدت عن التوفيق اراؤهم وكادت تطمع بل طمعت فيهم اعداؤهم اللهمّ يا ذا الطول والامتنان يا حنّان يا منّان يا ذا الجلال والاكرام تداركنا بالطافك الخفية في ديننا ودنيانا خالق الارض والسماء فان قلت ما ذكرته من انّ خروجك من الحواضر الى البوادي هو نتيجة افتراق الكلمة كما فعله من يقتدي به من الصحابة رضى الله عنهم فهو قصد صحيح وما دليلك على التلاعب قلت ما خرّجه ائمّة الصحاح من منع الخروج عن الائمّة وان الواجب في حقّ من راى منهم ما يكره الصبر والاحتساب اذ غاية الجور وان

تفاحش اقلّ بكثير من غايلة الخروج الذي يترتّب عليها فساد المهج والاموال والاعراض والاديان وهتك الحرم ولهذا صبر على جور الحجّاج من علماء الصحابة والتابعين من صبر حتّى لقوا الله تعالى سالمي الاديان وبالعبادة مغتنمي الزمان وتذكّر ما آل اليه الحال ووقع بالمرابط ابي محلّى فانّه كان في قطره عالي الصيت يقصد للزيارة ويتبرّك به ويعتقد فيه انّه قطب زمانه وبلغ به الحال الى ان سوّلت له نفسه او سوّل له انّه يصلح به ما لم يصلح بغيره من الانام فقام واعانه عليه قوم اخرون حتّى ملا الدنيا صياحاً ودعاوي وعياطاً واكاذيب ممّا لم يشهد به عقل ولا نقل فتجرا على المسلمين حتّى لم يسلموا من لسانه ولا من يده فسبّ واغتاب وقتل ونهب وحمل نفسه ما لا تطيقه فاستهوته شياطين الانس والجنّ والنفس والهوى ثمّ بعد ذلك كلّه لم يحصل من سعيه على طائل وافته الغفلة عن الكتاب والسنّة والرضى عن النفس والهوى حتّى انّه حكمها فصارت تلعب به الى ان فاه وادعى دعاوى بما استباح ما كان معصوماً من دمه وهلكت بعده بسببه نفوس واموال وغير ذلك ايشكّ من ارتاض بالكتاب والسنّة ونظر بعين الشريعة ان فعله ذلك ممّا حمله عليه من يجب عليه مخالفته من الشياطين والنفس والهوى وربّما استحسن فعله ذلك من شيعته من ابتلى به اوقلّده تقليداً رديّاً في فعله فان تولّيت فانّما عليك اثم الاريسيين والى الان كانوا يستصوبون فعله ويستحسنون قوله مع انه بمعزل من الكتاب والسنّة فان قلت هذه طوائف الفقراء ما بين متعصّب متحزّب ومتحيّل متصيّد ومتسوّر على ما استاثر الله به من الغيوب مرتكباً للاثام مصرّاً على العيوب قلت هذه طوائف الفقراء فيها جلّ ما تقدّم وزيادات تضيق على الاحاطة بها السطور والطروس قد بددتها والعياذ بالله بالفتن وشردتها ما تخوفته من المحن فماتت العلوم واضمحلّت الفهوم وتعطّلت الرقوم فلا منطق بذكر ولا مفهوم

هذا الزمان الذي كنّا نحاذره في قول كعب وفي قول ابن مسعود

ان دام هـذا ولم يحـدث له غير لم يبك ميت ولم يفرح بمـولود

قلت وهذا الشيخ ابو زكرياء هو الذي يساق الى نصحه الحديث كنّا نستشفي به ونستشفي وكانت تشدّ له الرحال ولايانف من اتيانه النساء والرجال قد اتته من اقطار مغربنا الوفود ودانت له الذياب والاسود وكان يعلم الجاهل ويهدي الضالّ ويطعم الجائع ويكسي العريان ويعين ذا الحاجة ويغيث اللهفـان وهي سبيل يا لها من سبيل وطريقة مـا احسنها من طريقة ثمّ صارت تلك الجموع ايادي سبا وتلاشت شذراً مذراً ما لها من نبـا وكان امر الله قدراً مقدوراً ايّها الشيخ اكرمك الله بتسديده اوتجد في الوجود ملكاً اعظم من ذلك الملك فتطلبه او تجد سلطاناً يوازيه او يقاربه فتحاوله اين خفي عليك هذا الشيخ وهو ضروريّ واين ضلّت عنك نصوص الكتاب والسنّة وانت معقول الم يان للذين امنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله لمقت الله اكبر من مقتكم انفسكم وان ابغض الكلام الى الله ان يقول الرجل للرجل اتّق الله فيقول عليك نفسك وهو طرف من حديث خرجه النساءي قد وعظتك وذكرتك ان نفعتك الذكرى نقوله جلّ من قائل وذكّر فانّ الذكرى تنفع المومنين فقلت من التعجّب ليت شعري ايقاظ امية ام نيام فان قال شيطان من شياطين الانس والجنّ هذه ما اريد به وجه الله قلت الله الموعد ايّاكم والظنّ فانّ الظنّ اكذب الحديث وستلقون ربّكم فيسالكم عن اعمالكم وان خطر هذا او هجس بقلب الشيخ اكرمه الله قلت والشيطان يجري من ابن ادم مجرى الدم قلت ادلّ دليل على انّي قصدت محض النصيحة هو انّه استنصحني على دفاع ابي محلّى فنصحته وقلت له انّ هذا لا تستقيم معه الديانة فكانّه ما قبل فانفصلت عنه وهو يقول استخر لي الله فكاتبته بان لا يفعل ثمّ لمّا نزل وكان على باب الغزو من تارودانت خلوت به وقلت له اذاك انّ النـاس يقولون كذا وكذا وعرّفته اذاك بما عرفته من ابناء الزمان فجمعتنا في رملة الى الان اتحيل حرّها ونبـاري من كلّ ما يقال وما زلت على المنع حتّى جاءت

كراريس من قبل ابي محلّى فتاملتها فوجدتها مشتملة على كفريات في جزئيات فحينئذ شرح الله صدري لاباحة دفاعه ثمّ انّي قلت بعد ذلك يا نفسي امره واقول في نفسي ما كان يقوله الامام سحنون في قضية ابي الجواد ما لي وله الشرع قتله ولو غششت لغششت في قضية ذلك الرجل وزينت لك قتاله أوّلاً لانّ ذلك مقتضى التعصّب للامير واذا لم اتعصّب اذّاك فكيف استسهله الان فتعين انّي نصحت لكم ان قبلتم والاّ فكما قال الله تعالى اخباراً عن نبيّ من انبيائه ولكن لا تحبّون الناصحين انشدك الله الذي باذنه تقوم السماوات والارض اني قلت لك بعد رجوعك الاوّل من مرّاكش بل العام الذي قبله لانّ العذر لا يحسن ولوحت وصرحت بانّ شقّ العصا لايحلّ غير ما مرّة وما كان كفاني القول الدليل على ذلك الى ان زدت الفعل وخرجت من مدينة لا ابغضها كما قال الشاعر

فوالله ما فارقتها عن ملالها وانّي بشطئ جانبيها لعارف

ورضيت بالبادية مع جفائها فراراً من الفتنة وعملاً بقوله صلّى الله عليه وسلّم يوشك ان يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعاب الجبال ومواقع القطر يفرّ بدينه من الفتن ثمّ بعد فعلى هذا كلّه نصحت فلم افلح وخانوا فافلحوا واسكنني نصحي بدار هوان وعدّوا عليّ من القبائح طاعتي للامير مع انّك يوم جاء لدارك قلت لهم هذا اميركم ونحن لا نشكّ انّك من المعتبرين في مغربنا وانّ بيعتك لاحد لازمة لنا وكذلك حين ذهبت لمرّاكش في وقعة ابي محلّى قد اراد اهل مرّاكش بيعتك فابيت والجت البلاد لخدّام الامير وقلت لهم انّه امير وفهمه الناس عنك بلسان الحال وبلسان المقال ونصروه بمرئى منك ومسمع أفنَشكّ بعد ان كان منك هذا انّك مبايع وانت قدوة واذا كان هذا فايّ حجّة لك على الامير وعلى المامورين فمن زيّن لك قتاله فقد غشّك اذ هو مسلم وابن مسلمين فان قلت موافقتي مشروطة بشروط لم يوف لي بها

قلتُ هب انه لم يوف التسبيح لقتاله لاجل ذلك والرسول صلى الله عليه وسلّم يقول اذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول للنار الحديث فبالله ايّها الشيخ ما تقول في هذا الحديث وانظاره وما تقول فيمن انتهب وعسى ان ينتهب من اموال الناس او اخذ بغير حقّ وانفق في سبيل الطاغوت والرسول صلّى الله عليه وسلّم يقول لا يحلّ مال امرئ مسلم الّا عن طيّب نفس منه أَوَما تستحي من ربّك يوم تسال عن النقير والقمطير ولست ممّن يخفى عليه ذلك كلّه فتعذر عند المخلوقين أَوَما علمت انّ كثيراً من العوامّ يعتقد جواز ذلك اذا راوك ارتكبته فتكون قد سننت هذه السنّة وضلّ بسبب ذلك كثير من الناس أَوَما خشيت دعوة المظلوم التي ما بينها وبين الله حجاب او ما كنت تعيّر على من يرتكب مثل ذلك من الولاة وتتاسّف عليه لاتعيّر اخاك المؤمن الحديث لا تنهِ عن خلق وتاتي مثله عار عليك اذا فعلت عظيم البيت اما انتهيت لما وقع لاهل درعة من النهب والسلب واسترقاق الاحرار وهتك الحرم انّ دماءكم واموالكم عليكم حرام الحديث وقد اتانا السوال من قبل الشيخ عن صنع ذلك ولم يستطع اذّاك من نظر بنور العلم ان يقول لهم في وزن قطر الماء الى ما آل اليه الحال في اهل درعة مع انّ جلّهم حملة القرءان وعامّتهم بله واكثر اهل الجنّة بله افيليق في حقّ الصلحاء ان يسلط عليهم من لا يرحمهم ولا تنزع الرحمة الّا من قلب شقيّ انّما يرحم الله من عباده الرحماء من لا يرحم لايُرحم الراحمون يرحمهم الرحمان ارحموا من في الارض يرحمكم في السماء انسيت انّه يقتص من الجماء من القرناء وانّ الظلم الذي لايتركه الله ظلم الناس بعضهم لبعض افي علمك انّ حسناتك تفى بما عليك من التباعات او انّه لا تباعة لاحد عليك ولو كنت بدرياً لاحتمل في شانك ما قال عليه السلام لعمر وما يدريك ان يكون الله اطلع على اهل بدر اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم او كما قال والظلم ظلمات يوم القيامة او تستطيع ان تقتحم ظلمات الصراط والّا فانت مسئول عن القيراط وحتّى اهل تارودانت بلغنا انّهم لم يغن في شانهم الترويع بل بلغ بهم الجور والحال الى التفريع فاتّق الله

ايّها الشيخ ولاتكن كمن اذا قيل له اتّق الله اخذته العزّة بالاثم هذا بعض ما يتعلّق بحقوق النـاس على العموم ويتعلّق بحقّ كاتبه على الخصوص انّك اخذت عليه اذ ادى الطاعة للامير ووعى ما هو من شيم المومنين من حسن العهد والتبرّي من الغدر وشقّ العصا بعد ابدال وسعه في نصحك ونصح الامير وحاول بكلّيّته على جمع الكلمة وتعب في ذلك واقتحم عقبات لا يقطعها الاّ بازل ولا سبيل اليها لمن يكون في دينه وعلمه مثلي ممّن هو نازل كما قيل اذا غاب ملاّح السفينة فارتمت بها الريح هدًّا جاذبتها الضفادع وقيل

لعمر ابيك ما نسب المعلى الى كرم وفي الدنيا كريم
ولكن البلاد اذا اقشعرت وضوح نبتها رعى الهشيم

ولكن ليس من شروط النصيحة كمال النـاصح كما انّه ليس من شوط تغيير المنكر عدم ارتكاب المغير لها لانّ هذه طاعة وتلك اخرى والتوفيق بيد الله سبحانه نعم بلغني مع ذلك وجزم لي بانّك مع بذل النصيحة لك وللامير اصلح الله الجميع واصلح ذات بينهم اخذت عليّ بالرصد في قفولي لصيتي والرجوع اليهم رعاية لمـا يجب ويندب من حقوقهم وهل هذا ايضـاً الاّ حكم الهوى والشيطـان اعندك اكرمك الله مـا تستبيح به ذلك مع انّي والحمد لله اينما كنت لا اسعى الاّ في مصلحة جهد الاستطاعة او بثّ نصيحة حيث لا ارى من يبثّها او اغاثة ملهوف حين تجب اغاثته لئن بسطتّ الىّ يدك الاية ولكن الباري سبحانه وتعـالى يقول ولا يحيق المكر السيئ الاّ باهله وفي التورية من حفر حفرة فليوسعها ولا تحفر بئراً تريد اخابها البيت فاين وجدت ما يسوغ لك ارتكاب مثل هذا قولاً او فعلاً او اشـارةً او تلويحاً او تصريحاً واي جريمة توازي هذه الجريمة او كبيرة من الاثم اكبر منها والى الله الموعد وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون هذا والسعاية المصحوبة بسؤال عن دفع سجتانة اين

تجدون ما يوجب اباحتها اين غاب عنكم انّها من الكبائر واين غاب عنكم قوله عليه السلام انّ الرجل لا يتكلم بكلمة يهوى بها في جهنم سبعين خريفاً هذا من اخلاق المومنين والصالحين وانت من بيت الصلاح ما كان جدّك يرضى مثل هذا وما كان ابوك امرء سؤ وهذا والله اعلم نتيجة قرناء السؤ وقد قيل لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلّك على الله مقاله والى هذا يتمى حقّ الصحبة اعنى بذل النصح انّ الله يسال عن صحبة ساعة ونحن صاحباك واعتقداك ونصحناك ووعظناك انصر اخاك ظالماً او مظلوماً ونصرتاك بالردّ الى الجادّة اين انت من مولانا الحسن بن علىّ اذ تخلّى لابن عمّه معاوية مع انّه هاشمىّ علوىّ فاطمىّ احد ريحانتىْ النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ومعاوية امويّ يجمعهما عبد مناف عن الامارة مع انّه امام ابن امام واصلح الله به وهو سيّد بين فئتين عظيمتين من المسلمين بعد ان كان يلقّب بامير المؤمنين فقال له اصحابه اذ سلم له في الامارة يا عار المسلمين فلم يكترث بذلك ولم يبال به وقال النار اشدّ من العار الهمنا الله واياّكم لرشد انفسنا وجعلنا واياّكم من الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه .

ذكر الخبر عن بقيّة اخبار عبد الله بن الشيخ بن المنصور

وما وقع له مع الثوار بفاس

كان عبد الله في حياة ابيه الشيخ تحت امره يصفى له ولا يقطع امراً دونه وكان غالب جنده وانصاره من اشراقة وبهم كان يستعصم حتّى اعطاهم اجنّة الناس وديارهم فكان الرجل ياتي بستانه فيجد اعرابيّاً بخيمته في وسطه فيقول له اعطانيه السلطان ومدّوا ايديهم في حرايم الناس ونهبوا الاسواق وجاهروا بالفساد واظهروا السكر في الطرقات واقتحموا على النـاس دورهم حتّى انّ امرة كانت تطبخ خليعاً وولدها رضيع عندها فاقتحم عليها الدار احد اشراقة

فهربت المراة واغلقت عليها مشرفة لها فلم يقدر لها على شيء فراودها على النزول اليه فابت المراة فقال لها ان لم تنزلي اليّ رميت الولد في الطنجير فتمادت على الامتناع فرمى به صاحت صيحة عظيمة والقت بنفسها عليه فاندقّت عنقها فماتت فغاظ الناس ذلك وقام على الشراقة رجل يقال له سليمان بن محمّد الشريف الزرهونيّ ويلقّب بالاقرع واعصوصب عليه كثير من العامّة وقاموا في نصرته فقتل الشراقة والتلمسانيّين بفاس حيث وجدوا وحكم في رقابهم السيف واخرجهم من فاس قهراً وحمى المدينة من اذايتهم وطهّرها من قبائحهم فاستحسنوا الناس امره واذعنوا له وكان ابتداء امر الشراقة واشتداد شوكتهم من عام ستّة عشر والف وكان قيام سليمان عليهم في ربيع النبويّ سنة عشرين والف وكان عبد الله في ثوران سليمان وفتكه فيهم غائباً بسلا فلمّا بلغه الخبر قدم ورام الصلح بين اهل فاس والشراقة وراودهم على ذلك فقالوا لا لا فسمّي ذلك العام عام لالا وامر سليمان الناس بشراء العدّة والتهيّء لملاقاة اشراقة وخرجوا لمقاتلة الشراقة خارج باب الحيسة فهزموا الشراقة وتسكّن حال المدينة وامن الناس اماناً لم يعهد منذ زمان السلطان الغالب بالله وفي يوم الاربعاء رابع عشر جمادى الثانية عام عشرين والف كانت وقعة المترب موضع خارج باب الفتوح وسببها ان اهل فاس استغاث بهم الملالقة مكيدةً وحيلةً واستصرخهم على الشراقة فخرجوا في يوم شديد الريح فكمن لهم الشراقة بخولان فغاروا عليهم فجاةً فانهزم الناس وقتل من اهل فاس نحو من الفين وغلقت الابواب واضطربت المدينة وهاج الشرّ بسبب ذلك مدّة وخرج اهل فاس مرّة لمقاتلة عبد الله بن الشيخ فهزموه واسروه وبقي في ايديهم فعفوا عن قتله واطلقوه وذهبوا خلفه حتّى دخل داره بفاس الجديد ولمّا قتل ابوه الشيخ وبلغته وفاته استبدّ بفاس وما انضاف اليها على وهن وفشل ريح وعزم ان يتوجّه لاخذ ثاره وازمع للمسير لذلك ووافقه سليمان والفقيه المربوع واصحابهما فامتنعت العامّة من الذهاب لذلك لانّ الشيخ لم تبق له في

نفوس المسلمين مودّة حيث باع العرائش للنصارى فاجتمعت العامّة بجامع القرويّين وقالوا لا نقبل سليمان ولا المربوع وحاصوا حيصة حمر الوحش واتّخذوا رؤساء اخرين فوقع بسبب ذلك شرّ عظيم ووقع الغلاء حتّى بيع القمح باوقيتين وربع للمدّ وكثرت الاموات حتّى انّ صاحب المرستان احصى من الاموات من عيد الاضحى من عام اثنين وعشرين الى ربيع النبويّ من العام بعده اربعة الاف وستّماية وخربت اطراف المدينة وخلت المداشر ولم يبق بلمطة الّا الوحوش وكثر النهب في القوافل وفي المحرّم فاتح سنة وعشرين والف قبض سليمان اربعة من كبار الشراقة ثمّ قتلهم فوجم له اللمطيّون وخاف الناس على المدينة وتوقعوا الشرّ وسكن الرعب في القلوب حتّى وقعت بسبب ذلك هزيعة في كلّ مسجد له خطبة بفاس كان الامام يخطب بجامع القرويّين والناس في صحن المسجد فوقع مطر غزير فابتدر من في صحن المسجد الدخول تحت السقف فظنّ الناس انّ سليمان غدروه الشراقة فانهزم الناس وهربوا من المسجد لا يلوى احد على احد وبلغ الخبر للطالعة فكان كذلك وفي يوم السبت الخامس من صفر سنة ستّ وعشرين قتل سليمان غدراً في جنازة لمطيّ خرج بها قتله المربوع وقتل اباه وابناء عمّه وستّة من اصحابه ودفن مع والده في مسجد الجرف ولمّا مات سليمان بقيت المدينة في يد المربوع اللمطيّ وتالف عليه اللمطيّون وتقوّى بهم ثمّ قدم اخوان سليمان من رزهون ورأموا الغدر بالمربوع ففطن لهم ووقع بينه وبينهم قتال مات فيه نحو ماية واحد وثلاثين رجلاً وسلم المربوع ثمّ انّ المربوع واصحابه اتوا برجل كان يتعبّد برزهون يقال له عبد الرحمن الخنود في جمادى الاولى سنة سبع وعشرين ورأموا ان يملكوه ويجتمعوا عليه فانزلوه مع اصحابه بروضة سيّدي علّي بن حرزهم فبلغ الخبر للقائد احمد عميرة وزير عبد الله بن الشيخ فاتى الى الروضة وفتك باصحاب الرجل ولجأ الرجل لداخل الروضة بضريح الشيخ ابن حرزهم فرموه من طاق هنالك فقتلوه وسقط على القبر ميّتاً ولمّا سئم اهل فاس من الحصار وضاق بهم الحال من غارة الاعراب

ذهبوا الى عبد الله بن الشيخ بفاس الجديد ونصروه واظهروا له المحبّة ففرح بهم غاية وتحالفت العامّة والخاصّة على نصره والاذعان له فعفى عنهم عبد الله بن الشيخ وصفح عن كلّ ما سلف منهم له وصلح حال الجميع وبعث وزيره للمربوع بالامان فلم يصدق وخاف على نفسه وصمّم مع اللمطيّين على قتال عبد الله بن الشيخ وتهيّا لذلك حتّى لم تُصَلّ بالقرويّين الصلوات الخمس ثمّ انّ وزير عبد الله القائد عميرة نادى بالامان على اللمطيّين فهرب اللمطيون عن المربوع حتّى لم يبق معه الاّ القليل فبعث له عبد الله بالامان سبحته وخاتمه فلم يامن وهرب ليلاً لبني حسن فاخذه شيخهم سرحان واتى به لعبد الله فعفى عنه وسرّحه لداره فعادت دولة عبد الله لشبابها وتهيّا له الامر وتمهدت له البلاد ودانت له العباد وذلك في جمادى الاولى عام سبعة وعشرين والف فجمع الجيوش وبعث بعض اجناده لحصار تطاون وبعضهم لقبض الاعشار وبعث وزيره حمّ بن عمر مع المربوع لانجرا موضع من جبال الزبيب فغدر المربوع بالوزير وقتله اعتماداً على كلام سمعه من عبد الله فغضب عبد الله واسرّها في نفسه ثمّ في يوم الاثنين ثالث ربيع النبويّ عام ثمانية وعشرين والف قتل المربوع اللمطيّ ونهبت داره ثمّ بعد ايّام وظّف عبد الله على اللمطيّين ثمانين الفاً فثقل عليهم امرها وهربوا فاسقط عنهم النصف منها والامر لله عزّ وجلّ

ذكر الخبر عن قيام محمّد بن الشيخ المدعوّ بزغودة

على اخيه عبد الله بن الشيخ وما وقع بينهما في ذلك

قال في شرح زهرة الشماريخ لمّا راى اهل بلاد الهبط ما وقع من افتراق الكلمة وتوقّد نيران الفتن بايعوا محمّد بن الشيخ المعروف بزغودة على ضريح مولانا عبد السلام بن مشيش نفعنا الله به وكان الذي قام بدعوته السيّد الحسن

بن علىّ بن محمّد بن ريسون وبايعوه على إحياء دين الله وإماتة الباطل واقامة الحقّ فلمّا بلغ خبره لاخيه عبد الله خرج لقتاله فلمّا التقى الجمعان هزم عبد الله ودخل محمّد فاساً في شعبان عام ثمانية وعشرين والف وقبض على بعض عمّال عبد الله فقتلهم واستصفى اموالهم وفي اخر شعبان المذكور وقعت المعركة بينهما بمكناس فهزم محمّد ودخل عبد الله فاساً في مهلّ رمضان واظهر العفو عن الخاصّ والعامّ ثمّ قتل اهل فاس قائده ابن شعيب واخذوا حذرهم من عبد الله الشيخ ووقع قتال بين اهل الطالعة وفاس الجديد ايّاماً عديدة حتّى اصطلحوا تاسع ربيع الثاني من عام تسعة وعشرين والف ثمّ انّ عبد الله خرج لمقاتلة اخيه محمّد فوقعت المعركة بينهما ببهت فهزم محمّد وفرّ شريداً الى ان قتله ابن عمّه احمد بن زيدان كما ياتي ذكر ذلك ان شاء الله وفي يوم الجمعة خامس ذي القعدة من عام اثنين وثلاثين والف قتل الفقيه الشهير القاضى ابو القاسم بن ابي النعيم بعد ان نزل من صلاة الجمعة بفاس الجديد قتله الاصوص بباب المدرسة العنانيّة لانّهم اتهموه بالميل لعبد الله بن الشيخ فوقع بسبب قتله شرّ عظيم بين اهل العدوتين بفاس ولم يزل عبد الله في معالجة اهل فاس تارة يميلون اليه وتارة ينحرفون عنه لقبح سريرته وفساد طويته حتّى كان قائده مامى العلج ينهب الديار جهاراً ويعطى لعبد الله كلّ يوم عشرة الاف ممّا ينهب من الناس من غير جريمة ولا دعارة وقام عليه بمكناسة الزيتون امّنها الله ايضاً رجل يقال له الشريف امغار وقام عليه بتطاون المقدّم احمد النقسيس ولم يبق له الّا فاس الجديد وامّا فاس القديم فتارة بتارة كما ذكرنا قبل لانّه استولى عليها سليمان والمربوع ولمّا قتلا كما ذكرنا قريباً قام بفاس محمّد بن سليمان اللمطىّ وعلىّ بن عبد الرحمن فقتل ابن سليمان وقام ابن الاشهب مع ابن عبد الرحمن المذكور فوقعت بينهما مقاتلات وحروب ثمّ قام الحاجّ علىّ سوسان وابن العربيّ وتولّى ايضاً يزرور ومسعود بن عبد الله وغيرهم من القيّام وكانت فاس في ايّام هولاء على فرق وشيع لا يامن التاجر على نفسه الّا ان استاجر باحد من هولاء

ووقع من الفتن ما اظلم به جوّ فاس ونتن افقها الذي كان عاطر الانفاس وخلا اكثر المدينة واستولى عليها الخراب ودام الشرّ بين اهل العدوتين حتّى كادت فاس ان تضمحل ويعفو رسمها وحدّث غير واحد من الثقاة انّ الشرّ لمّا دام بين اهل العدوتين ولم يكن لاهل الاندلس غلبة على اللمطيّين قال الشيخ العارف بالله سيّدي عبد الرحمن بن محمّد الفاسيّ لايغلب احد اللمطيّين ما داموا مواظبين على قراءة حزب الشاذليّ الكبير وكانت طائفة من اللمطيّين يقرءونه صباحاً بزاوية سيّدي رضوان من عدوة اللمطيّين فسمع بذلك اهل عدوة الاندلس فاحتالوا على ابطال قراءة ذلك الحزب فبعثوا رجلاً يحتال على اولائك الذين يقرءونه فاستضافهم وباتوا عنده جميعاً في منزله فلمّا طلع الفجر او كاد زعم انّ مفتاح الدار ضلّ وسقط ولم يزل يعاني فتحها الى ان طلعت الشمس فخرجوا ولم يقرءوا الحزب ذلك اليوم فاخبر اهل الاندلس فحملوا على اهل عدوة اللمطيّين فهزموهم وحكموا فيهم السيف وكانوا لم يجدوا لهم سبيلاً ببركة قراءتهم حزب الشاذليّ وذكر بعضهم هذه الشرور فحكى انّ عبد الله بن الشيخ في بعض غلباته لاهل فاس في ثورانهم عليه استشفعوا له خوفاً منه وطلباً لرضاه عنهم بالوليّين والصالحين المجذوبين سيّدي جلّول بن الحاج وسيّدي مسعود الشراط وكانا على قدم الملاميّة فلمّا وقفا بين يديه قال ما وجد اهل فاس شفيعاً يقدمونه اليّ غير هولاء الخرّائين في ثيابهما فغضب سيّدي جلّول وقال والله لا تصرف فيها يعنى في فاس احدى واربعين سنة وانصرفا فقيل انّ عبد الله انقلبت معدته فخرج غائطه من فمه ايّاماً الى ان اتى بالشيخين فاسترضاهما وكان امر فاس كما قال سيّدي جلّول لم يطاطئ رؤس اعيانها ملكاً الى ان جاء الله بمولانا الرشيد بن الشريف رحمه الله كما سياتي وكملت المدّة وانّما كان يتصرّف فيها اللصوص ويسمّونهم اهل فاس السياب وهذه حكاية صحيحة سمعتها من غير واحد وملخصها ما ذكرناه ولم يزل عبد الله في محاربة اهل فاس القديم من عام عشرين والف قبل وفاة والده الشيخ

بنحو عامين وبعد وفاته الى ان توفّى عام ثلاثه وثلاثين والف بسبب مرض اعتراه من اسرافه في الخمر وادمانه عليه وكان لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً ويتعاطاه اسراراً وجهاراً ومن اثار عبد الله بن الشيخ القبّة التى على الخصّة المكائنة تحت المنارة في وسط صحن جامع القرويّين فانّه لم يكن في القديم الّا القبّة التى على الخصّة المقابلة لها شرقى الجامع المذكور حدّثنى شيخنا الفقيه الحافظ ابو الحسن علىّ ابن احمد قال شيخ شيوخنا الفقيه الامام ابو عبد الله محمّد بن احمد ميارة يقول انّ احمد بن الاشهب الذي تقدّم ذكره قبل من القيام اخبربه النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قال والحديث بذلك مذكور في كتاب الجامع الكبير للحافظ جلال الدين السيوطىّ

ذكر الخبر عن بقية احوال زيدان بن المنصور

وما كان من امره الى ان توفّى

كان زيدان رحمه الله من لدن مات ابوه في محاربة اخوته وابنائهم ومقاتلة القائمين عليه من الثوّار الذين تقدّم ذكرهم ولم يخل قط في كلّ سنة من ايّام دولته من هزيمة عليه او وقيعة باصحابه ووقعت بينه وبين اخوته معارك يشيب لها الرضيع وكان ذلك سبب خلاء المغرب وخصوصاً مدينة مرّاكش وممّا عدّ من نحس زيدان واستدلّ به على فشل ريح زنده انّه في بعض الوقائع بعث الكاتب عبد العزيز الثعالبىّ بعشرة قناطير من الذهب الى ملك اصطنبول وطلب منه ان يمدّه ببعض اجناده كما فعل مع عمّه عبد الملك الغازي رحمه الله فجهّز له السلطان العثمانىّ من جيش الاتراك اثنى عشر الفاً وركبوا في البحر فغرقوا جميعاً ولم ينج منهم الّا غراب واحد فيه شرذمة قليلة وكان زيدان على ما وصفناه قبل وقع بينه وبين اخيه الشيخ وولده عبد الله حروب عظيمة واخرها

انّ عبد الله لمّا سمع بنزول النصارى دمّرهم الله على العرائش استصرخ في الناس وحضّهم على الذهاب للجهاد فتهيّئوا لذلك وعزموا على اغاثة العرائش فما راعهم الاّ زيدان اقبل من ناحية ادخسان ونزل بمقاربه وضرب انفاضه فانهزم الناس عن عبد الله ودخل الشرافة فاس فبعث زيدان قائده عبد الصمد لتسكين روعة البلاد وامر المنادي ان ينادي بنصره فنزل المنادي وهو ينادي الى ان بلغ باب السلسلة فقام في وجهه بعض السياب من اهل العدوة فضربه وجرحه فرجع وبطل الامر فبلغ الخبر لزيدان فاطلق السبيل في اهل فاس وحكم فيهم السيف ثمّ ندم واطلق النداء بالعفو عنهم وسكن روعتهم ونزل زيدان بوادي فاس فخرج الناس للقائه واستولى على فاس فخطب عليهم وجعل يسبّ جماعتهم وهمّ بقتل بعض اعيانهم ولكن الله سلم ثمّ انّ العرب اجتمعوا عند القنطرة المهدومة في نحو ثمانية الاف فخرج اليهم زيدان ومعه عرب الشرق فهزم ولم يبق معه الاّ رهط قليل فراى زيدان امامه ابلا قليلة فقصدهم فاذا فيهم عبد الله بن الشيخ فهرب مع انّ زيدان انّما قصد الفرار فتراجع اصحاب زيدان اليه ومن الغد خرج اليه اهل فاس يهنّونه كباراً وصغاراً فظنّ انهم قصدوا الاستهزاء به فامر بهم فسلبوا رجالاً ونساء وبقى بعضهم ينظر الى عورة بعض وكان عدد السلب عشرة الاف كسوة ودخل اصحاب زيدان فاساً فنهبوها وفعلوا بها الافعال القبيحة ثمّ امر زيدان بتسكين الروعة والامان وكان ذلك كلّه سادس رجب عام تسعة عشر والف فلمّا كان حادي عشر من الشهر نزل عبد الله بن الشيخ براس الماء وخرج اليه زيدان فالتقيا فهزم زيدان وقتل من اصحابه نحو الخمسماية وفرّ بمحلّته التى ترك بادخسان وهذا كان اخر رجوع زيدان لفاس وفي كتاب ابتهاج القلوب في اخبار المجذوب ما صورته تكلّم الشيخ الربّانيّ سيّدي قدّار يوماً في ملوك وقته فقال امّا الشيخ معطى العرائش للنصارى فانّ اهل الله قد دقّوا اوتاده هنالك حتى يموت فلم يعد ذلك الموضع الذي قال حتّى مات به حوز تطاون بموضع يقال له فجّ الفرس وذلك سنة اثنتين وعشرين

والف وامّا زيدان فقال ضربه مولاي ادريس برجله لمّا اطلق السبيل في اهل فاس ضربة صيّرته وراء وادي العبيد فلا يجاوزه ابداً فلم يرجع لفاس بعد ذلك . واقتصر زيدان على مرّاكش ونواحيها وكان رحمه الله غير متوقّف في الدماء ولا يبالي بالعظائم وهو الذي سمّ الفقيه العلّامة قاضي الجماعة بفاس سيّدي عليّ بن عمران السلاسيّ بعد ان سجنه لامر بلغه عنه وفي ايّام سجن القاضي المذكور كتب الاديب الكاتب ابو عبد الله محمّد بن احمد المكلاتي بهذه الابيات

امـا لهلال غاب عنّـا سفور ... فيجـلى به خطب دجاه ثبور
تصبّر لدهر راح يمحك الاسى ... وانت عظيم والعظيم صبـور
سيظهر مـا عهدته من جمالكم ... فالبدر من بعد الكسوف ظهور
وتحيي رسوماً للمعالي تغيّرت ... فالميت من بعد الممات نشور
ابا حسن انّي على الحبّ لم ازل ... مقيمـاً عليـه مـا اقام ثبير
ففي فنّ ماء من بقايا جنـائكم ... فطعمـه عندي سـائغ وتمير
عليكم سلام الله ما هطل الحيا ... وغنّت باغصـان الرياض طيور

فقال منشدها انشدتهـا له بمحبسه فبكى حتّى ظننت أنّه سيهلك ثمّ افاق وتلا الاية لله الامر من قبل ومن بعد ثمّ بعد ايّام راجعني رضى الله عنه جواباً بابيات وهي هذه

تفتّق عن زهر الربيع سطور ... فمـا هي الّا روضـة وغـدير
هزمت من الصدر الجريح همومه ... فـانت على جنـد الكلام امير
محمّد هل في العصر مثلك شاعر ... له معـلم في الخـافقين ظهـور
بنيّ كـذلك الـوداد وانّني ... سـاشهد قلبي بالهمـوم كسير
متى وعسى يثني الزمان عنانه ... بعثرة جـد والزمـان عثـور

فتدرك امال وتقضى مئـارب وتحدث من بعد الامور امور
عليكـم سلام الله منّى وانّنى غريب باقصى المـغربين اسير

ومن نظم القـاضى المذكور ايضـاً مخمساً رحمه الله بيتين لامير المؤمنين ابي العبّـاس المنصور

رماني بلحظ منه يا قوم فاتر فيا عجباً من فاتر وهو باتر
ولمّـا جنا حبّي وملّك سـائر طرقت حماه والاسود خوادر
به فتولّى بى الظما وهو بعيد
الم يدر انّي قـادم ومقـدّم وفي الحرب والهيجا هزبر وضيغم
ولست ابالى ما الخميس العرمرم فعلّمت اساد الثرى كيف تقدم
وعلّمت غزلان النقاكيف تشرد

وكان قتل القاضى المذكور في مهلّ ربيع الاوّل عام ثمـانية عشر والف وكان زيدان فقيهاً مشاركاً متضلّعـاً من العلوم وله تفسير على القرءان العظيم اعتمد فيه على نقل ابن عطية والزمخشريّ وكان كثير المراء والجدال كما وقع له مع سيّدي احمد بالقاسم الصومعيّ وله شعر لا باس به ومنه قوله

اهلكتنـا سوالف وخدود وشعور على المناكب سود
ووجوه تبـارك الله فيهـا وعيـون مدعجـات رقود
اهلكتنـا الظبـا ونحن اذلة وخضعنا لهـا ونحن اسود

وقوله ايضاً

مررت بقبر رائق وسط روضة عليها من النوار مثل النمـارق
فقلت لهم هذا فقـالوا بدلّة ترحم عليـه انه قبر عـاشق

وكانت وفاته رحمه الله سنة سبع وثلاثين والف ودفن بجنب قبر ابيه رحمه الله من قبور الشرفاء بظاهر قبلي جامع المنصور وممّا نقش في رخامة على قبره

هذا ضريح من له ... يفتخر المفاخر
زيدان سبط احمد ... مبتكر المئاثر
حامي حمى الدين بكـ ... ـلّ دابل وباتر
اجلّ من خاض الوغى ... وللاعادي قاهر
لا زال صوب رحمة ... الله عليه ماطر
ومن شذا رضوانه ... نفحة كلّ عاطر
ارّخ وفاة من غدا ... جاراً لربّ غافر
بمقعد الصدق على ... ذوي المعالي ناصر

ووزراؤه الباشا محمود ويحيى اجانا الوريكّي وغيرهما وكتّابه كاتب ابيه عبد العزيز الفشتاليّ وعبد العزيز بن محمد الثعلبيّ وغيرهما وقاضيه ابو عبد الله الرخراخيّ

ذكر الخبر عن عبد الملك بن الشيخ

بن ابي العباس المنصور

قال في شرح زهرة الشماريخ لمّا توفّي عبد الله بن الشيخ ولي اخوه عبد الملك في شعبان عام ثلاثة وثلاثين والف ولم يزل مقتصراً على ما كان صفا لاخيه الى ان توفّي سنة ستّ وثلاثين والف

ذكر الخبر عن ابي العبّاس احمد الاصغر

ابن السلطان زيدان ابن السلطان المنصور

قال في شرح الزهرة لمّا توفّى السلطان زيدان بمرّاكش قام ولده احمد ودخل فاساً بعد وفاة ابيه بستة واربعين يوماً وذلك يوم الجمعة الخامس والعشرين من صفر وصار يضرب سكّته وفي ثالث عشر شوال قتل ابن عمّه محمّداً الشيخ المعروف بزغودة غدراً بالقصبة وفي احد عشر من ذي الحجّة سجن بدار الملك من فاس الجديد ولم يتمّ له الامر

ذكر الخبر عن السلطان ابي مروان عبد الملك بن زيدان

بن احمد المنصور وما وقع في ذلك

ترك زيدان من اولاده عدّة منهم عبد الملك والوليد واحمد ومحمّد الشيخ وغيرهم ولمّا توفّى زيدان كما ذكرنا بويع من بعده ابنه عبد الملك المذكور ولمّا تمّت له البيعة ثار عليه اخواه الوليد ومحمّد الشيخ المذكوران فوقعت بينه وبينهما حروب ومعارك الى ان هزمهما واستولى على ما كان في يديهما من الذخائر والعدّة وكان فاسد السريرة مطموس البصيرة وبلغ من قلّة ديانته انّه تزايد له مولود فاظهر انّه اراد ان يحتفل بسابعه فبعث لنساء اعيان مرّاكش وخدّامه ان يحضرن وطلع هو لمنارة في داره فنظر للنساء وهنّ منتشرات قد وضعن ثيابهنّ فايّتهن اعجبته بعث لها وكان مدمناً على شرب الخمر الى ان قتله العلوج بمراكش وهو سكران يوم الاحد السادس من شعبان سنة اربعين والف ودفن بجنب قبر ابيه رحمه الله وممّا رايته منقوشاً في رخامة على قبره

لا تقنطنّ فانّ الله منّـان وعنده للورى عفو وغفران
ان كان عندك اهمال ومعصية فعند ربّك افضال واحسان

ووزراؤه محمود باشا العلج وجؤدر ويحي اجانا الوريكّي وغيرهم وقضاته عيسى بن عبد الرحمن السجتاني بمرّاكش ومفتيها الفقيه احمد السالميّ رحمهما الله

ذكر الخبر عن دولة السلطان الوليد بن زيدان

بن احمد المنصور السعديّ

لمّا هلك السلطان مولاي عبد الملك بن زيدان بويع اخوه مولاي الوليد بن زيدان في اليوم الذي توفّي فيه اخوه وهو سادس شعبان سنة اربعين والف قال في شرح الزهرة وكان الوليد متظاهراً بالديانة ليّن الجانب حتّى رضيته الخاصّة والعامّة وكان مائلاً للعلماء بكلّيّته متواضعاً لهم والّف له القائد علّ الطيب منظومته الشهيرة في الفواكه الصيفيّة والخريفيّة والف له القاضي عيسى بن عبد الرحمن السجتانيّ شرح صغرى الشيخ السنوسيّ ومحاسنه رحمه الله كثيرة وكان الوليد يقتل الاشراف من بني عمّه واخوته حتّى افنى اكثرهم وسجن اخاه محمّداً الشيخ الاصغر اذ كان يتخوّف من شقّه العصا عليه وانتزاع خاتم الملك من يده وفي ايّامه وقع الغلاء وفي عام ستّة وثلاثين كانت زلزلة عظيمة عند فجر يوم السبت الثالث والعشرين من رجب وفي خامس شعبان من السنة نزل برد عظيم على قدر بيض الدجاج واكبر واصغر ورئي حجر منها نزل على خيمة فخرقها وهرب اهلها وبقي لم يذب ثلاثة ايّام على ما قيل وكان الوليد مولعاً بالسماع لا ينفكّ عنه ليلاً ولا نهاراً ولم يزل مقتصراً على ما كان لابيه الى ان قتله الاعلاج وسبب قتله انّهم طلبوه في مراتبهم واعطياتهم

على العادة وقالوا له اعطنا مـا ناكل فقال لهم على طريق التهكّم كلوا قشور الارنج بالمسرّة فغضبوا من ذلك وكمن له اربعة منهم فقتلوه غدراً يوم الخميس الرابع عشر من شهر رمضان المعظّم سنة خمس واربعين والف والامر لله عزّ وجلّ

ذكر الخبر عن دولة السلطان محمّد الشيخ الاصغر بن زيدان

بن احمد المنصور رحمه الله وما وقع فيها

لمّا قتل السلطان مولانا الوليد كما شرّحناه قبل اختلف الناس فيمن يقدمونه للخلافة ثمّ اجتمع رايهم على مبايعة اخيه مولاي محمّد الشيخ والقـاء القياد له فاخرجوه من السجن وبويع بمركش يوم الجمعة الخـامس عشر من رمضان سنة خمس واربعين والف ولمّا بويع سار في الناس سيرة حميدة والان الجانب للكافّة وكان في نفسه متواضعاً صفوحاً عن الهفوات متوقفاً على سفك الدماء مائلاً للراحة والدعة الاّ انّه كان منكوس الراية مهزوم الحيش وبسبب ذلك لم يصف له ممّـا كان بيده الاّ مرّاكش وبعض عمالته وفي ايّامه قويت شوكة اهل الدلاء وانتشرت كلمتهم في بلاد المغرب وبعث لهم قاضيه الفقيه العلاّمة ابا عبد الله المزوار المرّاكشيّ فطلب منهم ترك الشقـاق والرجوع لاجتماع الكلمة ويحتجّ عليهم بانّ اباهم الوليّ الصـالح سيّدي محمّد بن ابي بكر كان بايع اخاه مولاي الوليد بن زيدان والتزم طاعته وانكم اولى الناس باقتفاء طريقته واتباع منهجه فلمّا بلغهم القاضي المذكور وادى الرسالة ونثر عليهم ما في العبية وبيّن قصده اعتذروا له بمسائل وتعلّلوا عليه بوجوه وقد وقفت على رسالة كتب بها السلطان مولاي محمّد الشيخ المذكور اليهم بعد رجوع القـاضي المذكور من السفـارة وهذا نصّها على التمام والكمال الحمد لله الذي نصب الدول في

الاصقاع حصوناً ذات اسوار لصون النفوس والحريم والاموال والشرائع وحضّ على فري فرع واصل العادين الثوّار الساعين بالاعتداء في هدّ قواعد الجماعة بانواع البدائع ونشهد انّه واحد ما له في فسيح وجوده شبه ولا شريك ولا قادر يقوم دونه بوظيف كلّ ضرير وضريك او يستفتى فينبيك عمّا في كنه غيبه او يريك يفعل ما يريد ويختار ويقبل تضرّع المضطرّين ويقيل العثار وانّ سيّدنا ونبيّنا ومولانا محمّداً عبده ورسوله الى الاحمر والابيض والاسود ونعم الشفيع غداة يعثر العاثر ما لم يكن بعهده تعود صلّى الله عليه وعلى آله الاجلّة الانجاب والخلفاء والاصحاب ما تبسّمت البساتين ومدامع تحنن السحاب الرضى عن كلّ تابع بعد تابع العاقدين على تشبيه هذا الدين عقد الاصابع هذا ولنصرف عنان عرضة الغرض لمن عيّناه لمسنون العتاب المفترض من هم في دقائق الحجاز مرابطون وفي حلائق الجواز ضابطون اهل وطن الدلاء لمن لورود الشرب محتاج السيد ابي القاسم بن ابراهيم والسيّد عمر والسيّد محمّد الحاج ومن لنشر صحف الانصاف منهم مطابق كالسيّد عبد الخالق سلام عليكم ما اثرت المواعظ في اصلاب الطباع وفترت الحفائظ عن المتعوّذ بها خطوات الشيطان وسطوات السباع ورحمة الله تعالى وبركاته ما صانت اشعلة المصباح مشكاته والّا وقد كاتبناكم من الحضرة الدامغة هامات الجاحدين والملحدين حمراء اللمتونة والموحّدين كتب الله لها منكم وقاية من لا يعنو عمّا صنع وبراءة من رام تزويجها كرهاً فتعوّق عنها وامتنع ولا زائد بعد الخطبة التي هي عند الادباء براعة الاستهلال وبضاعة يعرب عنوانها عن معنى الحال والاستقبال الّا قصد استيقاظكم من السنة التي طال لطلوع الشمس من المغرب ليلها وامتدّ كارض المحشر فرسخها وميلها هل هذا منكم استحقاق بحظوة الخلائف او تعام او تصامم عمّا يجب على الرعايا من لوازم الوظائف هذا من العار الماحي لصحو المناقب ولا ياوي من توخّاه الا المهيع لا تحمد لمنتجبه العواقب سيّما من نكث البيعة على من ولّاه المعين بسيطة المعمور وحمله اعباء القيام بما يحدث من تصاريف

الامور بشرط ان يزن فيعدل ولا يغيّر ولا يبدل وان يذبّ عن حفظ بيضة الدين بالرماح والسهام والنضول ويحسم اعناق الزائغين عن الابواب والفصول خصوصاً مثلهم الذي شقّ عصا الشقاق وشرع يمدّ ايدي الاطماع في استخلاص القبائل في الافاق على العموم والاطلاق الجمكم البله والوله في حصون الجبال كالمواشي وكنتم لا تدرون لباس القمص ولا الشواشي الى ان جسركم على وطء الغرب واخذكم معه المغترّ محمّد العياشيّ بدّد شمل الشراقة على سيخة ابن احمد وترك غيرهم اعمش وارمد يتردّد في همع الكمد وهمع بكلّ ما زاغ ومازغة حتّى اوطاهم على جبال بني يازغة فخلا لكم الجوّ وشرعت تمدّ اليكم اعناق الدو فبذتم اذّاك موائد الضيوف وتقلّدتم بلا حياء السيوف واعانكم اضطراب القبائل عام وقوع الجوع ومن مضى لايّ قطر تعذّر عليه الرجوع ان مكّنتم من نواصيها وازقتها ضعاف الرعايا وكلّ عنيد من رباط تازى الى وادي العبيد فاستحليتم سكراً بجبايات من الابريز والفضّة وفروج اماء الشاوية ما بين الحمراء الحمريّة والبيضاء الفضّيّة المفضة الى ان جمعتم منها ما لا يحصر بواسطة القرافي والمنتصر من غير ان تنفقوه على اقامة جند يصدم بقوّته وشدّته ذوي الصليب الكافر او تختطّوا مدينة او سوراً او جسراً يحصل ويتّصل لكم بفعله الذكر الجميل والثواب الوافر ولا انتفع به الّا شيع المومسات الثواب وشياطين الفساد والشراب ولم تراقبوا مكر من رفعكم عن عماء عموم البرابر واقعدكم في القباب على الاسرّة وفي بيوت الله على الكراسي والمنابر خلتم من غواياتكم ان عرين الغاب خال من النمور والضراغم اللواتي لانوف الطغاة والبغاة رواغم عويتم علينا معشر الثوار كالذئاب من كلّ عراء وشعبة لتكون عزيمة نهوضنا اليكم معطلة صعبة وانا لا ندري اين تميل النفوس وتطاطا له الرءوس هل لملك الصحاري او لرءيس ابلغ السوس حلتمونا سخريا خوامل كظفر فريش عبد الرحمن الداخل لكن من الحزم ان ننبّه كلّ ذي غفلة سكران من نشوة الرقدة ونخترط صارم الصولة القاطع لعرى كلّ لبّة وعقدة على انّ الملوك لهم ولاية

تصانيف الجموع على جانب كلّ زعيم فعله نافذ وقوله مقبول مسموع لا سيّما وهذا الغرب الذي لايزال ملاناً من نوامس كلّ كاهن ومراهن قرقار تمسى فيه البومة خاملة الذكر وتصبح بالمخنب والمنقار ومعادن اللمز والغمز والهمز والتبر والمجون هم الزوايا والرباطات والفنادق والطرازات والاسواق والسجون وفيما سلف من دول المغرب الزام تحريض الصغار على تعلّم انواع العلوم والصنائع وتغنيق الكبار المعتكفين في حلق المجامع وقد اذهب على السوس هبتها عمّن تحت يده من البلدان بسرف هبة الذهب واللجين والخيول والاماء والعبدان لكن من صفته يمناه لا يمكنه ان يبين او يتحسر او يبكي ومن عقد مقوده لمعصم سواه فاساء به لا يتصرّع ولا يشتكي اهملناكم وامهلناكم واهلناكم واقنا كم لعوائدكم من العبادة واطعام الطعام فطلعتم لنا في الاعناق عظماء زعام لم تعلم الفقراء الّا بحرمة جاه الدخيل على صلح او زواج كسماح الشحيح البخيل وما كفاية كلّ عاد تعدى دون تكليف طوره الّا ان يعجل المنتقم سبحانه تغييره وعوره واحرى من باع ولا تخلّص بالدنيا عرضه ومروءته ودينه ليضيع الحقّ ويشيع الجور في كلّ بادية او مدينة بحجال اللهو بين حامية وبهو وحتّى الان دعوناكم لعقد البيعة الواجبة لنا على كلّ من اطاع او عصى من وجدة الى حدود السوس الاقصى فنجهر لكم فيما يقوم بحقّ تلك الزاوية واهلها بشرط ان تفيق من استغراق الغفلة حيلة اهلها وان امسكتم اقدام الانقياد عن سلوك سبيل السداد وقبول رسوله فاذنوا بحرب من الله ورسوله فقد شيعنا نحوكم فقيهنا وقاضينا ابا عبد الله السيّد محمّد المزوار فصددتموه اوصب صدّ وانقلب على الحافرة وردّ اقبح ردّ ولو لم نبال بكم بالفكر والذكر ما صرّفنا فيما سلف وصيفنا الامير مبارك السوسيّ فشيّد واشاد وبنى واجاد ضريح والدكم السيّد محمّد بن السيّد ابي بكر فدنستم خالص عرضه وضيّعتم لازم مسنونه وفرضه وانه لنا عليكم بريد وبصيرة بما انطوت لكم عليه غرة الحصيرة فقصّ علينا دون ان نفحص ان عين الجهش

في الناذر وانّ من غدا في امداد وغد الاوتاد وجد عينهم غادر وعينهم عن صفو الموارد صادر وعلى هذا ان لكم نسبة لروعان الثعالب فحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوّة الّا بالله العلىّ العظيم الحفيل ولا يسعنا ان ندعكم مع اشراف سجلماسة مع بنى موسى تلعبوا بنا كهرّ الغالية في القفص لا يغتنم غناء غلّته الّا بوخز المصال التى تكلفه الرقص حلبتم ضروع الاقطار في البلاد باليمين والشمال ونفضتمونا كما انتفض الاثواب من درن الرماد والرمال وحاصل الغرض تودية البيعة بقول وفعل واعتقاد كما عقدها ابوكم الابرّ الجواد المرحوم الفاضل المجيد لاخينا الارضى مولاي الوليد لنتظم بعون الله كلمة ملّة الاسلام ولا يبقى للغير فعل وكلام لو فعلتم لاقتفى اثركم جموع المنتجعين والامصار ولا يبقى من يصفى لغيرنا باذان ولا يطمح بابصار وان عظمت اليكم مفارقة حبّ الرءوس والذنب والايدي والفت ركوب بنى الوحية واللاحق لا الاعراس والصيد فانتظروا صبيحة طلوعى عليكم طلوع الفجر على غسق الليل يسيل كموج البحر والرماة والخيل وتغمركم من باسنا غمائم شديدة الغمرة وينفذ فيكم الحكم العدل نهيه وامره انشر بعونه ما انطوى من المراحل وندمّ بعدكم دولة الاشراف السجلماسية ونلوي على زاوية الساحل الى ان تعود الايالة الشيخيّة علويّة عليّة بحسن الحال وصيت الذكر او تهوى لحضيض بنى سعد بن بكر وليكن ما ابصرتموه لانفسكم من صدق الصفا جواباً وصواباً والعاقل احسن مفتاح لحلّ ما انعضض من الابواب وليعلم منكم اي نبراس يخرجنا من حرج هذا الخندس وهل قبلة عبادتكم مكّة او بيت المقدس وليكن منّا هذا ختام مفيد الكلام والسلام وكان المخترع لها محمّد بن عبد الرحمن ببستان جنان ميمون من قصبة الحضرة المرّاكشيّة حرس الله اوطانها ومتّع بالهناء رعاياها وسلطانها ضحوة يوم الاثنين حادي عشر جمادي الثانية من سنة سبع واربعين والف انتهى وهذا جواب اهل زاوية الدلاء الحمد لله الذي له الملك الكامل في الدنيا والاخرة وعليه الاتكال واليه المصير يستدرج بحكمته الانسان من

حضيض دقايق الهوان للحضرة البادخة الفاخرة وهو العلّي العظيم السميع البصير يضع بعدله اقواماً اعزّة ويرفع بفضله خواملي اخر ولا يسال عمّا يفعل وهم يسالون كلّ واحد على الذي قدّم واخّر وما كانوا يعملون ونشهد انّ لا اله الّا الله وحده لا شريك له الصادق الصمد الباقي على الابد والدوام السرمد الامد وانّ سيّدنا ونبيّنا ومولانا محمّداً عبده ورسوله المبلغ لمين الامانة ليكرع في حياض الايمان والاسلام من تاخّر عنه ومن ادرك زمانه صلّى الله عليه وعلى آله نجوم السعد وصحابته رجوم من رمى دين الهدى بالسهم البعد وعلى جمهرة التابعين ومن تبعهم على مساق الرشد مهطعين سامعين وبعد فقد اجلنا الخطاب جواباً لمن زكى وتائل فرع اصله وصاب ابي عبد الله مولانا محمّد الشيخ نجل امير المؤمنين ابي المعالى مولانا زيدان ابن الاثير الهمام الاوحد امير المؤمنين ابي العبّاس مولانا احمد احمد الله لنا ولكم وللمسلمين الاوائل والعواقب وجدّد لكم ما غرس الاجداد في المغرب من محمود المناقب وسدّد الموفق للفلاح اقوالك وافعالك واوطا في بساط الطرب والانبساط نعالك وقاد بالميمونة ناصيتك لقطع شأفة من نافق عنك وختر وللعهد نقد وخفر ونصبك حصناً مصوناً لعرض من اقام آمناً او سفر او نفر سلام عليكم سلام من اسلم اموره بعد القادر اليك ورحمة الله وبركاته ما غرد الطائر على مخضل الايك فقد كاتبناكم من زاوية عبادة الهادي الى الصراط المستقيم العالم بحكمة تفضيل المنتج على العقيم والظاعن والمقيم والستر المسدول على اصحاب الكهف والرقيم كتب الله لنا ولكم حجب الامن والعفو والعافية واسبغ علينا وعليكم وعلى المسلمين خوامي حالل حلمه الوافية ولا زائد بعد حمد الله الذي وجب على العباد حمده وشكره ونحتم تعبّداً تقديسه وتسبيحه وذكره ولا نامن يغشنا قضاؤه ومكره الّا انّ مسطوركم الاحرش لمّا ورد ساحتنا سلب منا الاذهان والعقول كما صفدت صلابته الايدي عمّا تفعل واخرس صيته الالسن فاتلفت ما تقول فلا جارحة الّا ولها من خبطه طنين فكادت الجبال تسقط المشائم

فضلاً عن الجنين فيا له من سوط الزجر الذي لا ينسى علينا طول السنين اسمعتنا غرائب لم تمرّ مدارتها على اهل الدهر الاتي والغابر ولو صرخ بها على جبّانة لنهض اهل المقابر وليست هذه عوائد من سبقك لتلك الدرجة من الاعمام والاخوان منهم القريب لك والدك مولانا زيدان حتّى سُمتنا بالدلالة في اسواق المذلّة والهوان وما نحن الاّ ركن ووكر لمن طرقته وصمة او غمّته غمّة او حذر اخاه او اباه او عمّه يأمن لدينا بنفسه وذويه وفلسه متى عرته نكبة من هجر او وقعة لم يجد في الغالب مؤلاً سوى هذه البقعة وانت تمثل تدبيراً باشارة الاعلاج المجبولين على طبائع الخدائع والغشّ على تلّ قواعد ملكهم هناى عن عريش العشّ ومن الدليل والشاهد والبرهان فتهكم باخيك مع مشورة النسوان على غيب من الجند والديوان عرضهم في المغرب نشر سنّة الباس التى نشروها في المشرق بعد المعتصم من بنى العبّاس فلا تدعهم يخدمونك حتّى يدركون فيتفكّروا ما فعل اباؤهم المشركون قاتلهم الله انى يوفكون وهم سلبوا روح جدّك السمىّ من غمد الجسد وحملوا هامته في مخلاة من مسدّ وحرّكوا الى عمّك مولانا عبد الله لوادي اللبن حوز صنهاجة لولا انّ الحىّ القيّوم سبحانه صرّف اعنتهم عن قضاء الحاجة وايم الله لئن داموا لك في الغرب فطانة حتّى يطلّقوا عليك ثلاثا اوطانه واما نحن فبيعة والدنا لكم لم تزل لنا في الاعناق وحطناها بشغف واشفاق ولا ينبغى ان تعاد فتكرّر كالظهير لمن اراد ان يتحرّر وايضاً منعنا من تجديدها انسلال البربر عن ساحتنا فيكون اقوى سبباً لاحاطة حجاب الصون لفضيحتنا واجلها هذا الاجدل الذي لا تؤذيه سموم الليالي ولا حرارة قيظ المصيف مولانا محمّد ابن مولانا الشريف عقاب اشهب على قنة كلّ عقبة لم يقنعه عدد المال عن حسم الرقبة وربّما عرتنا غفلة فيشنّ الغارة الشعواء على شعاب بشعوب ملوية او ينشر جيوشه على رباط تازى بالرايات والالوية سيّما وجناحاه ذووا النفوس النفيسة بربر صنهاجة ودخيسة بزاة النزوات بالحلّة والمحال والغزوات والعياشى كما تعلمون كانت همة هجرته اولاً

لردع همّة اهل الشرك ثمّ مدّ الخطا لطلب درجة الملك قد خدع دون وفقنا طوائف البربر فخوّض زروع العرب عام الجوع ليصبغ لنا ولهم كفّ العداوة بالوقوع فكان الامر كذلك الى ان سدّ القدر المحتوم بيننا وبينهم المسالك واما وصيفكم الامين مبارك السوسيّ حيث اناخ علينا كلكل الاقامة لاختطاط ضريح الوالد رحمه الله بما اقامه اقمنا بوظيف حقّه الظاهر والباطن وسرّحنا له بعد الاستراح اقدام الجولان حتّى اختبر بعين الحقيقة انجاد الاماكن واغوار المواطن ولا شكّ انّ حال مطالعته هى التى رخصت لنا في سوق خواطركم الاسعار الى ان نصبتم لنا بعد الرضى حبائل العار الجالب للادعار وجد قبائلنا متبدّدة على ضمّ الحبوب في الصيف ولا عاينهم مستعدّين على الخيول برمح ولا مدفع ولا سيف فخالهم على غرّة غنيمة باردة ولا علم انهم اغوال القيل صادرة وواردة فان كانت معاينته هى التى اطمعتك ان يعودوا بعد العز نوائب فادر انّ ظنّه الخاوي خائب من ركب الخيل لنفسه دون راتب المخزن لا ترضى همّته ان يهان فيحزن وقاضيك السيّد محمّد المزوار حيث عاين وفود الاقاليم منتشرة كالجراد على الازقّة والادراب دون من لزم الابواب والحظ علينا العرصات والقباب تحقّق عياناً انّ شمل المالك والمملوك لا يكون منتظماً الّا على عظماء الملوك فقصّ عفا الله عنّا وعنه عليكم وعلى من حضر ما اعتقد سمع ونظر وحتّى الان ان قصدتم الغرب والعرب او حصن فاس لا تنالكم منّا مساءة ولا باس فبعد ان يكون لكم في المدينة البيضاء الجديدة والقديمة قرار يكون لنا بعد ذلك حكم الاختيار بين ان ننوبك او نترك لك الديار او نستصرخ بمن هو مثلك شريف حقيقيّ وسلطان له شغف اكثر منك في ضبط الاوطان فنقابل اذّاك القسورة بالساط ونلقى بطانة من شاط لاسنان الامشاط ايّهما للغرب غلب نودى له على غمة الرغم ما رغب وطلب وان انت قنعت بحوز الحمراء من مرّاكش ورفضت عنك معاناة الهراش والشاوش فدعنا ومراعاة من تجارته الرياسة وهمّته اشتراء بقيس السياسة ضرغام غاب سجلماسة وامّا صاحب ايليغ السوس فما مراده

ودويه الاّ غنيمة سلامة الاعراض ونجاة سلب النفوس وفيما تلوناه عليك من القصص ابلغ كفاية في غنيمة العيش الارغد وتجريع الغصص فان غادرتنا مستترين في حرمة الوقار والاحترام فنعم وان زاحمتنا بمكتب الهوان والاحتقار يدافعك عنّا من ادّعى انّه زعم وان طرقنا مناخ عزم قصدك على عبر وادي ام الربيع يجمع الله بين من يشتري ويبيع والسلام وكتب عن اذن جمهور اخوانه عبد الله المسناوي بن محمّد بن ابي بكر الدلاءي يوم الاحد ثاني وعشرين من رجب الفرد الحرام عام سبعة واربعين والف . وكانت بينه وبين اهل زاوية الدلاء معركة انقشع غبارها عن هزيمته وذلك بموضع يقال له بوعقبة احد مشارع وادي العبيد ولمّا راى محمّد الشيخ تعاصى اهل زاوية الدلاء عليه واستحكام اهل المغرب لهم وتقويتهم بالعدد والعدّة وضعف عن مقاومتهم وعجز عن مقارعتهم صرّف عنانه عن عنادهم ومنازلتهم ومنوالتهم ومال الى مسالمتهم وقطع النظار عمّا في ايديهم وقد نبغ عليه رجل من هشتوكة خارج باب الخميس من مرّاكش وقاسى في محاربته تعباً شديداً ولم يزل يناوشهم القتال الى ان كانت عليهم الكرّة ففرّق جموعهم وشقّ عليه ايضاً قبيلة الشياظمة فتصدهم فكانت الملاقاة عند جبل الحديد فهزم هزيمة شنيعة والامر لله وحده يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء وقد وقفت على رسالة كتب بها مولاي محمّد الشيخ المذكور لمولانا محمّد بن الشريف الحسنيّ السجلماسيّ لمّا بويع بفاس ينبّهه بالملك ويحذّره من اهل المغرب وغدرهم من انشاء وزيره القائد محمّد بن يحيى اجابا وفي اخرها قصيدة من انشاء القائد المذكور وهي هذه

يا شبل مولانا الشريف محمّدا ... شمس السعادة والهلال الاكمل
ملات همّتك المهمّة مغربا ... فزهت بمشرقنا اصبهان وموصل
صقر الصياصي على الاعادي صايل ... غورا يغير وفي الملاحم يستل

اظفاره للمارقين صوارم ... وبكلّ ظفر منذ يسطو ذوابل
فجناحك الجرد العتاق وان نظر ... ت الى تلمسان يطيش الساحل
هاتيك ثوّار القبائل عنوة ... والوحش مهمى تغير غار المنهل
قد طبت ان عرقت عروقك في الوغى ... خاتت العنابر ذيب فيها المندل
يا مالكاً سعدت به اوطانه ... فيما مضى وزهى له المستقبل
نادى بك النصر العزيز لمغرب ... وليكم على فاس الجديد الكلكل
فاحذر كما حذر الغراب ولا تكن ... كالبط يطفو من مصاه القلقل
واعدل تفوز ولا تواخى طامعا ... تردى العداة وتعمى عنك العدل
لا تصدمن جبل البرابر واصطبر ... حتّى يهون على الجوالس مدخل
لا تامن الاعراب في اقوالها ... واقمع فضاضة من يخون ويحتمل
وعليك بالغارات في اوطانها ... بكتائب تسبي الاثاث وتقتل
واغضض ولا توذي تجّار مدائن ... يبقى عليك الستر دابا مسبل
لا تتّخذ من اهل فاس صاحبا ... او حاكما يصل الامور ويفصل
كالبغل عادته الفرار وان غدا ... في مربض فمتى استغرّك يركل
لا تنقلنّ الى الصحاري ذخائرا ... فيقول اهل الغرب حتما يرحل
واضرب لبيت الملك اوتاد الدهى ... تزداد صيتاً في العقول وتقبل
والق فؤاد العرب واعرف قدرها ... فغروم كل قبيلة لا تجهل
وابسط يديك على العيال هنية ... واذا غرست عروق عدل تنقل
هذي وصايا قد اضعن حقوقها ... في حقّ اخر ما ابتاه الاوّل
فمتى شردنا للمعالي رحالنا ... يا باء نصر والمقادر تخذل
فرضينا محتسبين احكام القضا ... والله يفعل ما يريد ويعدل

فاجابه مولاي محمّد بن الشريف بقصيدة ختم بها جوابه من انشاء الفقيه سيّدي محمّد بن سودة

امحمّد الشيخ بن زيدان الرضى ... فخر الخلائف والهمام الافضل
فلقد اجبتك عمّا فيه كتبت لي ... نثراً ونظماً كي ترى ما تسال
انّي ابثّ لكم وصايا جمّة ... ان انت للنصح المصرح تقبل
فالى متى طول الرقاد اما ترى ... اظعان ملكك كلّ يوم ترحل
والدهر ينتف في ريش جناحكم ... ويدنّسنّ من الصفا ما تغسل
ما من خليفة ذاق لذّة راحة ... الاّ تحلّله الهوان فيسفل
ومن احدى من كثرت شقا ثواره ... تعدى عليه بكلّ عاد معقل
تحتال تخدعه بكلّ قنيصة ... حتّى يصاد كما يصاد الغنتل
فاستيقظن من الخمار ومن رعى ... غنما من اسد الغضا لا يغفل
وانفض غبار الذلّ واخلع نعله ... يزداد وجهك بهجة ويهلّل
ضيّعت ملكك في الرخى وتركته ... للخزي في دور الولاية ذلّل
وركنت للظلّ الوريف وغادة ... يزهو البديع لكم اذا ما ترفل
واذا رغبت دوام هيبة همّة ... وتصير في ستر عليكم يسبل
دع عنك في الحمراء مروق سفرجل ... ومرفالاً به زعفران وقلفل
واركب مطايا الصافنات الى الوغى ... امّا تحوز مزيّة او تقتل
واقرع طبولاً للدعاة وفي الوغى ... يحي الي الحرب العوار المخفل
وحض الغمار وهز رمحاً وادّرع ... واعل العنان وفي اليمين المنصل
خاطر بنفسك في القيافى جائلا ... تردى العدوّ وكلّ ليل منزل
واصطد بهارك بالسلاق وبعدها ... عقبانها وتراكل والاجدل
وقُد الجيوش كما الوحوش ولا تدع ... من يعص امرك تزجرنه فيفعل
جنّب اجانا الخين في تدبيره ... واصحب شجاعا للذخائر يبذل
لا تجعلنّ من العلوج بطانة ... فطباعها الغدر البليغ الاعجل
امّا الشبانة فاحذرن من غيّها ... لا بدّ تغدر في الاخير وتخذل
ترجو عواقب دولة لنفوسها ... وتردّ من وافا جنابك يحفل

يعطف عليك الدهر بعد نفوره فتعود ايّام السرور وتقبل
ما ذاق زيدان ابوك حلاوة من حزمه حتّى انتحاه المنضل
واذا امتثلت جواب صدق وصيّتي يصفى الزمان لكم ويصفو المنهل

وكان في ايّام مولاي محمّد الشيخ رخاء مفرط وغلاء مفرط عام ستّين والف وتوفّي رحمه الله عام اربعة وستّين والف ودفن بقبور الاشراف قريباً من قبر ابيه وممّا كتب في رخامة على قبره

ابدر سماوات المعالي افول وفي الضريح كان منه نزول
محمّد الشيخ بن زيدان غاله حمام فحزن العالمين طويل
امام المعالي ذو المآثر فضله له غرّة في الصالحين جميل
حباه الاه العرش رحما تخصّه بما هو في الفردوس منه كفيل

ووزراؤه يحيى اجانا وولده محمّد وغيرهما وقضاته عيسى بن عبد الرحمن ومحمّد المزوار

ذكر الخبر عن السلطان مولاي احمد المدعوّ العبّاس

ابن السلطان مولاى محمّد الشيخ بن مولاي زيدان

لمّا توفّي مولانا محمّد الشيخ رحمه الله كما ذكرناه قبل بويع ولده مولانا العبّاس سنة اربع وستّين والف وقام مقام ابيه في جميع ما كان بيده الاّ انّ حى الشبانة وهم اخواله قويت شوكتهم في ايّامه وغلظ امرهم عليه ووثبوا على الملك وراموا الاستبداد به فضايقوه وحاصروه بمرّاكش اشهراً ولمّا رات امّه

الامر لا يزيد عليه الّا شدّة كلّمته في ان يذهب الى اخواله وياخذ بقلوبهم ويزيل ما في انفسهم عليه فذهب اليهم فلمّا تمكّنوا منه قتلوه غيلة واقبلوا لمرّاكش مسرعين وبويع فيها لاميرهم عبد الكريم بن ابي بكر الشبانيّ ثمّ الحرزيّ وكان قتله سنة تسع وستّين والف وبموته رحمه الله انقضت الدولة السعديّة وانقضى بساطها وانهار جرفها فسبحان من لا يبيد ملكه ولا يتحوّل سلطانه قال المؤلف رحمه الله وقد ذكرتني هذه الفعلة قول مولاي محمّد بن الشريف في قصيدته السابقة

امّا الشبانة فاحذرن من غيّها لا بدّ تغدر بالاخير وتخدل

فكان الامر كما قال مع انّ مولانا محمّد بن الشريف كتب بالقصيدة المذكورة لمولاي محمّد الشيخ سنة تسع وخمسين والف وغدر الشبانة بمولاى العبّاس سنة تسع وستّين والف فبين ذلك عشر سنين ومولانا محمّد بن الشريف تلقّى ذلك من بعض اهل الكشف او نحوه فانّ كلامه كثيراً ما يقع فيه نحو ذلك وكانت مدّة هذه الدولة السعديّة نحواً من مماية وخمسين سنة وعدد ملوكها على ما سلف بضعة عشر ملكاً فالله تعالى يسامحهم ويتجاوز عنهم فلقد كانت ايّامهم في جباه الكفر كالمكاوي والمياسم واوقاتهم في وجوه الاسلام اعياد ومواسم وللخلافة عند الله قدر عظيم لا يجهله الّا من جهل الفرق بين الحصباء والدرّ النظيم ولقد تجنّبنا التعالى في الذمّ في حقّ بعض من يستحقّه منهم سترّاً للاعراض ورعياً لجانب الخلافة فانّ الملوك ان كانت لهم هفوات فلهم محاسن وحسنات فلا يهضم حقّهم سيّما هولاء الاشراف الذين

قطعوا ثمار المجد من غرس العلا باكفّهم فلنعم غرس المغارس
لهم لباب المجد عزّة انفس وذكاء الباب وطيب مغارس

خاتمة تشتمل على فوائد ثلاثة

الفائدة الاولى . وجد بخطّ ابن غازي رحمه الله ما نصّه استقرا ابن الخطيب السلمانيّ رحمه الله في كتاب الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام انّ الدولة تختم بما افتتحت به ومصداق ذلك في عبد الحقّ فانّ به ختمت دولة بنى مرين وبه بديت . وربّما يجري ذلك هاهنا فانها بمولانا محمّد الشيخ بديت اذ هو اوّل ملوكها في الحقيقة وختمت بمولانا محمّد الشيخ اذ هو اخرهم في الحقيقة والله اعلم

الفائدة الثانية . ذكر الحافظ السيوطيّ وغيره كالدميريّ في حياة الحيوان انّ سادس الخلفاء مخلوع وعدّ من اوّل ملوك الاسلام جماعة كسيّدنا الحسن بن عليّ رضى الله عنهما فانّه السادس وقد خلع وربّما يجري ذلك هنا فانّ مولاي محمّد المسلوخ هو السادس باعتبار زيدان بن احمد الاعرج الذي بويع بسجلماسة وقد خلع من الملك والله اعلم

الفائدة الثالثة ممّا ينبغى ان يعلم الفرق بين الملك والسلطان . قال ابن فضل الله في كتاب المسالك ذكر عليّ بن سعيد انّ الاصطلاح ان لا تطلق هذه التسمية الّا على من يكون في ولايته ملوك فيملك مثلاً مصر والشام وافريقية والاندلس ويكون عسكره عشرة الاف فارس ونحوها فان زاد بلداً او عدداً في الجيش كان اعظم في السلطنة وجاز ان يطلق عليه السلطان الاعظم فان خطب له في مثل مصر والشام والجزيرة ومثل خراسان وعراق العجم وفارس ومثل افريقية والمغرب الاوسط والاندلس كان تسميته سلطان السلاطين والله اعلم . من حسن المحاضرات للسيوطيّ

ذكر التعريف بسيّدي محمّد العياشيّ وثناء العلماء الاكابر عليه وابتداء امره ومغازيه رضى الله عنه وارضاه وجعل الجنّة منزله وماواه

قال مؤلّفه امّا التعريف به فهو محمّد بن احمد المالكيّ الزيانيّ واشتهر لقباً بالعياشيّ وبنو مالك من عرب المغرب وبيته فيهم بيت خير وصلاح من قديم وقد وصفه الشيخ الامام ابو عبد الله محمّد بن احمد ميارة في شرح المرشد المعين بالوليّ الصالح العامل السائح قطب الزمان وكهف الامان المجاهد في سبيل ربّ العالمين المرابط في الثغور مدّة عمره لحياطة المسلمين ذي الكرامات الشهيرة العديدة والفتوحات العظيمة الحميدة من لا شبيه له في عصره وما قرب منه ولا نظير ولا معين له على نصرة الاسلام ولا نصير الّا الله الذي تفضّل به علينا واقرّه بمنّه وجوده بين اظهرنا وهو كما قيل

حلف الزمان ليأتينّ بمثله حنثت يمينك يا زمان فكفّر

البركة القدوة المجاب الدعوة ابو عبد الله سيّدي محمّد بن احمد العياشيّ . وبمثل ذلك وصفه العالم سيّدي العربيّ الفاسيّ ايضاً وكان الوليّ الكبير العارف بالله الشهير سيّدي محمّد بن ابي بكر المجاطيّ الدلاءيّ يربع محاسنه ويطيل الثناء عليه وكان يقول في دعائه له اللهمّ جازِ عنّا سيّدي محمّداً العياشيّ افضل المجازاة وكافِه عنّا احسن المكافاة واجعل مكافاتك له انكشاف الحجاب عن قلبه حتّى تكون اقرب اليه منّى اللهمّ لا تحرمنا توجّهه اليك وانقطاعه لخدمتك اللهمّ نفّس كربته وكمّل رغبته واجب دعوته وسدّد رميته واردد الكرّة على من عاداه في الحقّ انّك على كل شيء قدير . وقد وقفت على رسالة كتب بها سيّدي محمّد بن ابي

بكر ايضاً ونصّها الحمد لله الحليم العفو الرؤوف المنزه عن صفة من وصف بها وصلّى الله على سيّدنا محمّد مدينة العلم المسورة بسور السماحة والحلم وعلى سادتنا آله واصحابه وكلّ من انتظم في سلك اتباعهم من اهل حزبه هذا وانّ المجلّى بنور طلعته ظلم الظلم والفساد المحلّى بخزائن المعالي بموجبات النفاق على حين الكساد المستوطن حبّه بسويراء الفؤاد من القت اليه المكارم ازمّة الانقياد وصلحت به بحمد الله تعالى العباد واينعت ببركاته البلاد حوطة الاسلام وحمايته وخديم الدين المحمّديّ وكفايته سيّدي محمّد بن احمد العياشيّ المحمودي الاوصاف بشهادة من يعدّ من اهل الانصاف زاده الله من المكارم اعلاها ومن نفايس درر المجادة اغلاها وتوجّه بتاج الكرامة والرضى وامدّه بدائم مدده السرمديّ حتّى يرضى وسلم جنابه القدسيّ العلميّ المرابطيّ المجاهديّ من جميع البلايا واتحفه من تحفه الفاضلة الوهبيّة باعلا المزايا واهدى اليه من طيب بركاته ورحماته ما يرضاه دينه العليّ لحماته قد شهدنا على انفسنا بالاقرار بفضله علينا وانّ ما يسرّه يسرّنا وانّ ما يضرّه يضرّنا على ذلك منّا يقينا من له معنى ادنى مخالطة بحيث لا يمكنه ان يرفع ذلك بنوع من المغالطة وان الضارّ بالعين ضارّ بانسانها لكن النفوس الانسانيّة محلّ لخطاها ونسيانها ومن اقنا لديكم مقام الخديم والولد قد اساءنا ما اساءكم ممّا عنه ورد وطلبنا من جميل اوصافكم بمعاملته بالصفح الجميل فلن يزال الانسان الا من عصمة الله يستمال ويميل ولولا الحرارة ما عرف الظلّ ولولا الوابل لقيل النهاية في الطلّ وما عرف العفو لولا الاساءة ولا يقال صبر المرء الاّ فيما اساءه وماعرفنا صاحبه الاّ بجانب كلّ من للدين ينتسب فان خرج عن نظركم فقد اتاه الغلط من حيث لا يحتسب . ووصفه الشيخ الامام العالم الحجّة ابو عبد الله سيّدي محمّد بن ناصر الدرعيّ في رسالة وقفت عليها بخطّ يده بامير المؤمنين وسيّد المسلمين وناهيك بها شهادة على علو منصب الرجل . وكما قال الاديب الكاتب ابو عبد الله محمّد بن احمد المكلاتي في مدحه

حديث العلا عنكم يسير به الركب ... وينقله في صحفه الشرق والغرب
وحبّكم فرض على كلّ مسلم ... تنال به الزلفى من الله والقرب
فانت رفيع من اصول رفيعة ... نجوم الدياجى في الانام لها سرب
سمّى رسول الله ناصر دينه ... تجلّى بكم عن افقه الشكّ والريب
ولم ار بحراً جاوز البحر قبلكم ... يجود بعسجد اناامله السحب
وما يستوي البحران عندي فانّ ذا ... اجاج لعمري للسواقى وذا عذب

قال الامام الشهير ابو محمّد سيّدي عبد الواحد بن عاشر رحمه الله في مدحه

يا حادي الاظعان في الرياشى ... ابلغ سلامى فخرنا العيّاشى
من فضله بدا ونوره غدا ... تغدو به الركبان والمواشى
طود العلا عين الندا غمر الردى ... فريد وقته الامام الحاشى
لله سيف صارم وقاطع وقاصم ... ظهر العدا كبيرهم والناشى
كم غصّة جرّعها صدورهم ... جار بها واقفهم والماشى
يتركهم عند اللقا رهن الشقا ... صرعى على الارضين كالبواشى
تهنيكم حياتكم يا مسلمين ... ما دام فيكم سيّدي العيّاشى
انام لا شكّ الانام الكلّ في ... ظلّ الامان ليّن الفراش
يا عاذلي في حبّه عذلك دع ... ولا تحدّثنى حديث الواشى
اني امرؤ بالحسن مفتون وعن ... جميع لوم لايمي عاشى
هديّة الى الكرام ابرزت ... للسامعين الخير فيهم فاش

وثناء الناس عليه كثير يطول بنا تتبّعه وفي هذا القدر كفاية وامّا ابتداء امره رحمه الله تعالى فقال الشيخ الحافظ ابو زيد سيّدي عبد الرحمن ابن الامام سيّدي عبد القادر الفاسى رحمه الله في منظومته المسمّاة بزهرة الشماريخ في علم التاريخ ما نصّه

وبعد لام ظهر العياشي شيّاً فشيّاً ثمّ مات ناش

قال شارحها ما معناه كان ابتداء امر سيّدي محمّد العيّاشيّ رضى الله عنه انّه كان من تلامذة الوليّ الصالح العارف بالله تعالى سيّدي عبد الله بن حسّون السلاسيّ دفين سلا وكان اقرب التلامذة اليه واسرعهم لخدمته وكان مع ذلك قليل الكلام مداوماً على قراءة القرءان والصيام فكان الشيخ ملتفتاً اليه ولم يزل الامر كذلك الى ان شاعت مناقب الشيخ وكثرت غاشيته فاهدى له يوماً بعض اشياخ القبائل فرساً فامر الشيخ باسراجه وقال اين محمّد العياشيّ فقال له ها انا يا سيّدي فقال الشيخ اركب بحول الله فرسك ودنياك واخرتك فتقهقر متأدّباً وحلفه وحبس له بيده الركاب وقال له ارتحل عنّي الى ازمّور وانزل على اولاد ابي عزيز ولا بدّ لك من الرجوع الى هذه البلاد وسيكون لك شان عظيم فوادعه ووضع الشيخ يده على راسه وبكى ودعا له بخير فقصد ازمّور ونزل حيث عيّن له الشيخ ولم يزل مثابراً على الجهاد شديد الشكيمة على العدوّ عارفاً بوجوه المكائد الحربيّة مقداماً في مواطن الاحجام صموتاً وقوراً ذا بطش شديد فطار بذلك في البلاد صيته وشاع بين الناس ذكره بما هو عليه من التضييق على العدوّ الكافر وفرح بذلك قائد ازمّور ولم يزل على ذلك الى ان توفّي قائد الفحص والبلاد فسال السلطان زيدان بن احمد المنصور عمّن يليق بتولية ذلك الثغر فقيل له سيّدي محمّد العيّاشيّ فكتب له بالتولية فنهض باعباء ما حمل وبتولية الفحص وكانت له مع النصارى وقائع عظام وضيّق عليهم اشدّ تضييق حتّى منعهم من الرعاية والحرث فبعث نصارى البريجة لحاشية زيدان بالتحف ونفيس الهدايا ليزيلوا عنهم سيّدي محمّد العيّاشيّ لمضايقته لهم فخوّفوا زيدان منه وحرضوه على عزله واظهروا له انّه مسموع الكلمة في تلك النواحي وانّه يخشى منه على الملك وكان سيّدي محمّد كلّما بعث بما يفتح الله عليه من الغنائم والاسارى لمرّاكش ازدادت شهرته وتناقل الناس

حديثه فوعز بذلك قلب الساطان وحقد عليه فبعث له قائده محمّداً السنوسيّ في اربعماية فارس للقبض عليه وقتله فالقى الله تعالى في قلب القائد المذكور الشفقة عليه لما يعلم من براءته ممّا قذف به فبعث له خفية ان انج بنفسك فانّك مغدور فخرج سيّدي محمّد في اربعين رجلاً فرساناً ورجالة قاصدين سلا فلمّا بلغ السنوسيّ ازمّور لم يجد له اثراً فاظهر العناية بالبحث عليه وعاقب على افلاته شرذمة من اهل الفحص ولمّا دخل رحمه الله سلا زار شيخه وبات عند ضريحه وجاءه اهل سلا وذكروا له ما هم فيه من الخوف من النصارى وانّ مسارحهم امتدّت لوادي المخازن وانّ النصارى الف من الرماة دون الفرسان فامرهم بالتهيّء واتخاذ العدّة فلم يجد بسلا الاّ نحو المايتين من العدّة فحضّهم على الزيادة والاستكثار منها فكان مبلغ عدّتهم بما زادوه زهاء اربعماية فخرج بهم الى المعمورة فصادف بها النصارى عدداً فكانت بينه وبينهم حروب عظيمة قرب المعمورة الى ان غابت الشمس فقتل من النصارى زهاء اربعماية ومات من المسلمين ماية وسبعون رجلاً ختم الله لهم بالشهادة وهذه اوّل غزوة اوقعها في الغرب بعد صدوره من ثغر ازمّور ومنها قصرت النصارى عن الخروج للغابة وضاق عليهم الحال ثمّ انّ زيدان لمّا بلغه اجتماع الناس على سيّدي محمّد العياشي بعث الى قائده على قصبة سلا الزعروريّ وامره باغتياله والقبض عليه فماوض الزعروريّ في ذلك اشياخ الاندلس فاتّفق رايهم على ان يكون مع سيّدي محمّد العياشي جماعة منهم عيناً عليه وطلعة على نيّته واستخباراً لما هو عازم عليه وحفظاً له ممّا هو مطلوب به فلازمه بعضهم وكان زيدان قبل ذلك بعث لقائده الزعروريّ المذكور ان يجهّز لدرعة اربعماية من الاندلس الذين بسلا فجهّزهم اليها وطالت غيبتهم بها فهرب اكثرهم ومالت قلوبهم عن الزعروريّ وسلطانه فلمّا بعث زيدان لاهل سلا بتجديد البعث الى درعة امتنعوا من الانقياد له في ذلك وكرهوه وازمعوا على خلع طاعته ووشوا له بقائده الزعروريّ فبعث زيدان لقبضه فقبض ونهب الاندلس داره وكتبوا له مظهرين طاعته مكيدةً

منهم ونفاقاً فبعت لهم زيدان المملوك عجيب فمكث عندهم ايّاماً فلم يعتنوا به وصاروا يهزؤون بحاله وثمّ قتلوه فظهر منهم شقّ العصا على زيدان واظلم الجوّ بينه وبينهم وبقيت سلا فوضى لا ولي لها فكثر النهب ومدّ اللصوص ايديهم للمال والحريم وسيّدي محمّد ساكت لا يتكلّم وكثرت الشكاية من التجّار والمسافرين بخوف السبل وقطع الطرقات فهرع الناس الى سيّدي محمّد العياشيّ وكثرت وفوده واشرقت في الجوّ السلاويّ انواره وسعوده فشمر عن ساق الجدّ واظهر الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ولمّا طلبه الناس للتقدّم للنظر في مصالح المسلمين وامور جهادهم مع عدوّهم امر اشياخ القبائل واعيانها من عرب وبربر وروساء بان ينزلوا خطوطهم في ظهير بانّهم رضوه وقلّدوه وقدّموه على انفسهم والتزموا طاعته واي قبيلة خرجت عن طاعته وامر كانوا معه على مقاتلتها حتّى تفيء الى امر الله فكتبوا بذلك خطوطهم ووافق عليه قضاة الوقت وفقهاؤها من تامسنا لتازى وكان الحامل له على ذلك انّه بلغه عن بعض طلبة الوقت انّه قال لا يحلّ الجهاد الاّ مع الامير ففعل ذلك خروجاً من الدعوة الواهية والاّ فقد كتب له علماء الوقت كالامام سيّدي عبد الواحد بن عاشر والامام سيّدي ابراهيم الكلاليّ والامام سيّدي العربيّ الفاسيّ وغيرهم بان مقاتلة العدوّ الكافر لا تتوقّف على وجود السلطان وجماعة المسلمين تقوم مقامه ولمّا كمل امره وبايعه الناس على اعلاء كلمة الله وردّ الظلم على ضعفاء الامّة ضاق الحال على عرب الغرب لاعتيادهم الفساد وعدم الاحكام ومحبّتهم الخلاف والسيبة فنكث بيعته جماعة وكان ممّن نكث الناصر بن الزبير في لمّة من الشرافة فقاتلهم سيّدي محمّد العياشيّ رحمه الله فظفر بهم وعفا عنهم ونكث ايضاً الطاغى بالتاء بدل الطاء في السنتهم مع جماعة من اولاد اشجين فغلبهم وعفا عنهم وكذلك عرب الحيانة طغوا على اهل فاس وعتوا وسعوا في اخلال البلاد بامر احمد ابن مولانا زيدان فقاتلهم سيّدي محمّد العياشيّ رحمه الله فكانت الدائرة عليهم وتاب على يده جماعة من روساء الشرافة الذين كانوا مع الحيانة وكانت عاقبة كلّ من

بغا عليه وطغا خسراناً مبيناً واماّ مغازيه رحمه الله فقال شارح الزهرة كان نزول النصارى بمرسى الحلق سنة اثنتين وعشرين والف وكان هذا الحلق قصراً للمسلمين ولقوا منه شدّة ولمّا اجتمعت الكلمة على سيّدي محمّد العياشيّ وردّ الله من نكث للعهد كان اوّل ما بدا به انّه تهيّأ للخروج للحلق واستعدّ لقتاله ومنازلة من فيه من النصارى طمعاً في فتحه فيتقوّى بذخائره المسلمون وكان المسلمون قد حاصروه ايضاً فلم يقدروا له على شيء وصعب عليهم الامر وكان سيّدي محمّد العياشيّ رحمه الله اذا اراد الله ان يظفره بغنيمة راى في نومه انّه يسوق خنازير ولمّا سار بجموعه للحلق ونزل عليه راى قطعتين من الخنازير والغنوز معها فكان من قضاء الله انّه في صبح تلك الليلة قدمت اغربة من السفائن بقصد الدخول للحلق فضيّق عليهم الرماة من الخندق فارادوا ان ينحرفوا للبحر فردّهم البحر لساحل الرمل فتمكن منهم المسلمون وقتلوا وسلبوا ونهبوا ووجدوا في الاغربة زهاء ثلاثماية اسير من المسلمين فاعتقهم الله واسروا من النصارى اكثر من ثلاثماية ومات اكثر من ماية منهم وظفر بقبطان من عظمائهم ففدى به طائف رئيس اهل الجزائر وكان عندهم في قفص من حديد ومنها غزوة العرائش وكانت سنة اربعين والف وذلك انّه صرّف همّته للتضيّق على نصارى العرائش وشنّ الغارات عليهم فكمن بالمسلمين بالغابة نحواً من ستّة ايّام فخرجوا بغتة فمكّن الله له من رقابهم وطحنهم في ساعة واحدة ووقع له مع نصارى العرائش ايضاً انّه اخذ حناشا من عرب طليق يقال له ابن عبود فاراد قتله فقال له استبقني فانّي اقفع المسلمين وانّي تائب الى الله عزّ وجلّ فتركه وذهب اليهم وكان موثوقاً به عندهم حتّى انّهم كانوا يودون له الراتب على ذلك فقال لهم احياء العرب وحللهم قد نزلوا بوادي العرائش فلو غرتم عليهم لغنمتموهم فخرجوا مبادرين مكثرين فما شعروا الاّ ان احاط بهم سيّدي محمد العياشيّ فلم ينج منهم احد وكان عدد من قتل من الكفرة نحو الالف فاخذوا ابن عبود اذ بقي في ايديهم فقلعوا اسنانه ومثلوا به وراموا قتله لولا انّه رفعهم الى شرعهم

فسرّحوه ومن غزواته رضى الله عنه غزوة الحلق الكبرى وذلك انّ اهل فاس نزلوا بموضع يعرف بعين السبع وكمنوا ثلاثة ايّام وفي اليوم الرابع خرج النصارى على غرة فثار المسلمون عليهم وكانت الغنيمة اربعمـاية من العدّة وقتل من النصارى ستّماية وكان النصارى لمّا خرج جيش فاس بقصد الغزو اعلمهم مسلم مرتدّ كان عندهم فاعطوه سلعاً وجاء المرتدّ لسلا بقصد بيعها فاخذ وقتل فعمى عليهم الخبر اذ كانوا ينتظرونه بالخبر فلم يشعروا حتّى صاحبتهم الخيل فاحيط بهم ولم ينج منهم الاّ القليل حتّى لم يبت في الحلق تلك الليلة الا نحو الاربعين رجلاً منهم ولم يحضر سيّدي محمّد العياشى بنفسه في هذه الغزوة لانّه ذهب لطنجة قلقاً على يوم المسامير حيث صنعوا مسامير بثلاثة رؤس تنزل على الارض والرابع يبقى مرفوعاً مكيدة عظيمة تضرّر منها الفرسان والرجالة من المسلمين ولمّا رجع واعلم بضعف من بقى في الحلق بعث الى الاندلس بسلا يصنعون له السلاليم يصعد منها لمن بقى في الحلق فتثاقلوا عليه من صنعها غشاً منهم الاسلام ومناواة لسيّدي محمّد العياشىّ حتّى جاء المدد لاهل الحلق فلمّا اتى بها لم تغن شيأً بعد ان ركبها ومن هنالك استحكمت البغضاء بينه وبين اهل الاندلس وكان اهل الاندلس اعلموا النصارى بانّ محلّة محمّد النازلة في محاصرة الحلق ليس له اقامة فبلغ ذلك لسيّد محمّد فاقام عليهم الحجّة وشاور العلماء في قتالهم فافتى سيّدي العربيّ الفاسىّ بجواز مقاتلتهم لانّهم حادوا الله ورسوله ووالوا الكفّار ونصحوهم ولانهم تصرفوا في مال المسلمين ومنعوهم من الراتب وقطعوا البيع والشراء على الناس وخصّوا به انفسهم وصادقوا النصارى وامدّوهم بالطعام والسلاح وكان الامام سيّدي عبد الواحد بن عاشر رحمه الله لم يجب عن ذلك الى ان راى بعينه حيث قدم لسلا الاندلس يحملون الطعام للكفّار ويعلمونهم بغرة المسلمين فافتى بجواز مقاتلتهم وحكم في رقابهم السيف ايّاماً الى ان اخمد بدعتهم ورجع بهم الى الكلمة ولمّا وقعت غزوة الحلق الكبرى جاءت الوفود بتهنية سيّدي محمّد بما منح الله له من الظفر فحضّهم على استيصـال شافة من بقى به وعيّر العرب بترك

النصارى في بلادهم وكان ممّن حضر في العرب جماعة من الخلط وبنى مالك والطاغي والدخيسيّ وغيرهم فقال لهم والله والله ان لم ياخذكم النصارى لياخذنكم البربر فقالوا له يا سيّدي وكيف يكون ذلك وانت فينا فقال لهم اسكتوا انتم الذين تقطعون راسي فكان كذلك وهذا من كراماته رضى الله عنه واما مقاتله اهل البريجة فسببها كما رايته في رحلته بخطّ الفقيه العلاّمة قاضي تامسنا في حينه ابي زيد عبد الرحمن بن احمد الغنامي الشاوي انّ اهل البريجة عقدوا المهادنة مع اهل ازمّور مدّة فكان من عزّة النصارى وذلّة الاسلام في هذه المدّة ما تتفطّر منه الاكباد وتخرّ الجبال هدّاً فمن ذلك انّ زوجة القبطان خرجت ذات يوم في محفتها ومعها صواحبها الى ان وصلت حلّة العرب فلقّاها اهل الحلّة بالولاول والفرح وصنعوا لها من الاطعمة وحملوا لها هدايا من الدجاج والحليب والبيض فظلّت عندهم في فرح عظيم ولمّا كان الليل رجعت ووقع لها ايضاً مرّة اخرى انها امرت زوجها القبطان ان يخرج بجيوشه ويبعث لقايد ازمّور ويخرج بجيوش المسلمين فيلعبون فيما بينهم وهي تنظر اليهم وتتنزّه فيهم فكان ذلك فجعلوا يلعبون وهي تتفرّج فيهم فما كان الى ان حمل كافر على مسلم فقتله فكلم قائد المسلمين القبطان واخبره بما وقع فقال القبطان فما يضركم ان مات شهيداً يهزا به ويسخر بالمسلمين قال وكان الولي الصالح العابد الزاهد المجاهد رافع لواء الاسلام ومحي منهاج النبيّ عليه الصلاة والسلام سيّدي محمّد العياشي كلمّا سمع او راى شيأً من ذلك تغيّر وبات لا يلتذّ بطعام ولا منام وهو ينظر كيف تكون الحيلة في زوال المعرّة عن المسلمين وغسل اعراضهم من وسخ الاهانة وهو مع ذلك يخاف من العيون التي ترصده من صاحب مرّاكش وقائد ازمّور ومن قبطان البريجة فمكث كذلك مدّة من ثلاث سنين فلمّا راى الامر لا يزيد الاّ شدة اشار لبعض اولاد دويب من اولاد ابي عزيز ان يجلبوا للنصارى شيأً من الزرع خفية ويكون شيأً قليلاً فشيأً قليلاً حتّى تطمئن نفوسهم ويذوقوا حلاوته ويريهم

النصيحة والمحبّة فلمّا حصل ذلك جاءه جماعة منهم واخبروه بذلك واطلعوه على غرّة النصارى فعزم على قصد البريجة ثمّ بدا له تقديم العرائش ثمّ يأتي البريجة وكان ذلك في رابع صفر عام تسعة واربعين والف ثمّ تحرّك للبريجة فذكروا له انّ وادي ام الربيع في نهاية المدود والانتهاء فلم ينته عن ذلك وسار حتّى بلغ الوادي فوجده ممتلياً جدّاً لا يكاد يدخله احد الّا غرق فقال لاصحابه ومن معه توكّلوا على الله واجتهد في الدعاء ثمّ اقتحم الوادي بفرسه متوكّلاً على الله وتبعه الناس فعبروا جميعاً ولم يتاخّر منهم احد وكان الماء يصل الى قريب من ركب خيولهم مع انّ ذلك الوادي حين امتلائه لا يدركه له قعر عند الناس كما شوهد ذلك وهذه كرامة عظيمة وبرهان عظيم وقع له رضى الله عنه ولم نسمع بمثل هذا وقع الّا للصحابة رضوان الله عليهم كما وقع للعلاء ابن الحضرمي في فتوح العراق وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وبلغ البريجة ووجد طائفة من اولاد ابي عزيز شعروا به ولجئوا للقبطان خوفاً من سيّدي محمّد العياشي ان يمكر بهم فخرج في خيله وكان سيّدي محمّد كامناً بازاء البريجة بالغابة فلمّا انفصل القبطان بجيشه عن البريجة حمل عليهم سيّدي محمّد العيّاشي بخيله فقطعهم عن الهرب الى البريجة فهربوا للبحر فماتوا كلّهم قتلاً وغرقاً الّا نحو من سبع وعشرين فتغيّر صاحب مرّاكش على ذلك وانكر ما صنع هو وقاضيه الفقيه السيّد عيسى بن عبد الرحمن وبالجملة فغزوات سيّدي محمّد العياشي رحمه الله كثيرة وحمايته للدين شهيرة ودابه عن الاسلام ممّا هو واضح عند الخاصّ والعامّ وكان رحمه الله عازماً على اخذ العرائش فحال بينه وبينها الموت وكذلك كان ملحّاً على اخذ طنجة فلم تساعده الاقدار ومن خطّ الفقيه العلاّمة ابي عبد الله محمّد بن احمد ما صورته حدّثني من اثق به من الاخوان عن ابنه الفقيه العلاّمة الاشهر سيّدي عبد الله ابن سيّدي محمّد العياشي انّه وجد مقيّداً بخطّ والده رحمه الله انّ جملة ما قتل من الكفّار في جملة غزواته سبعة الاف كافر وستّماية كافر ونيف وسبعون كافراً . وكان الذي استولى عليه

سيّدي محمّد العياشيّ سلا ونواحيها وعلى تامسنا وعلى اعراب الغرب كلّ ذلك كان تحت طاعته وفي ولايته ولم يزل في نحر العدوّ حتّى أمن سرب المسلمين وحقّ القول على الكافرين وكان رحمه الله مجاب الدعوة ما دعى الله في شيء الّا استجيب له شوهد ذلك منه مراراً وكان من كراماته انّه يعلم الناس بالغنيمة قبل وجودها وكان فقيهاً مشاركاً في الفنون من العلوم وله اتباع ظهرت عليهم بركاته ولاحت عليهم اسرار سرّه ونفحاته

ذكر الخبر عن قتله رحمه الله وسببه

وما وقع له في ذلك

قد ذكرنا قبل انّ الاندلس بسلا تحزّبوا عليه ورموه عن قوس واحدة وانّه كان اطلع على خياتهم للاسلام واهله ونصيحتهم للكفر وذويه وانّه استفتى العلماء في مقاتلتهم فافتوا باباحة مقاتلة من اتّصف بهذه الصفة فاطلق سيّدي محمّد فيهم السيل أيّاماً فقتل من وجد منهم وهرب اكثرهم فمنهم طائفة ذهبت لمرّاكش وطائفة ذهبت للجزائر وطائفة فرّت للنصارى وفرقة ذهبت لاهل زاوية الدلاء فجاء اهل الدلاء يشفعون في الاندلس فابى سيّدي محمّد ان يقبل الشفاعة فيهم وقال انّ الراي في استيصال شافتهم فلمّا راى اهل الدلاء امتناعه وردّه شفاعتهم غضبوا لذلك واجمعوا على مقاتلته وجاءوه فخرج اليهم سيّدي محمّد بجنوده فاوقع بينهم وهزم جمعهم وفتك بالعرب الذين كانوا مع الطاغى فتفرّقت الجموع وتبرّا التابع من المتبوع وذهب سيّدي محمّد لغزو طنجة فلمّا رجع من غزو طنجة وجد البربر مع اهل الدلاء وصلوا الى اطراف ازغار ومعه الطاغى واهل حزبه من الكراردة والدخيسى عزموا على مصادمة سيّدي محمّد فاراد سيّدي محمّد ان يغضّ طرفه عنهم ويصرّف عنانه لغيرهم فلم يزل به

اصحابه واهله الى ان نبذ لمقاتلتهم فلمّا التقى الجمعان كانت الوقعة على سيّدي محمّد فهزم من معه وقتل فرسه تحته فرجع الى بلاد الخلط وكان روساء الخلط اكثرهم في حزب الطاغى وعلى راي الكرادي فرجعت البرابر لاوطانهم وبقى سيّدي محمّد عند الخلط ايّاماً فغدروا به وقتلوه رحمه الله بموضع يسمّى عين القصب واحتزّوا راسه وحملوه الى سلا ومن كراماته المتواترة انّهم لمّا حملوا راسه سمعوه ليلاً يقرا القرءان جهاراً حتّى عاينه جميع من حضر فردّوه لمكانه وتاب بسببه جماعة من الناس ولمّا مات سيّدي محمّد فرح النصارى لموته غاية الفرح واعطوا البشارة على ذلك وعملوا المفرحات ثلاثة ايّام وحدّث رجل كان بالاسكندريّة انّه راى النصارى يفرحون ويخلون انفاضهم فسالهم عن ذلك فقالوا له قتل صانطوا في المغرب ومعناه المجاهد وكان قتله رحمه الله تاسع عشر من المحرّم سنة احدى وخمسين والف وقد رمزوا لتاريخ وفاته بقولهم مات زرب الاسلام باسقاط الف الوصل وفي الرحلة لابي سالم سيّدي عبد الله العيّاشيّ قال اخبرني الشيخ محمّد الفزار بمكّة قال كان بالمدينة المشرفة رجل مغربيّ من اهل العصر في السنة التى مات فيها الوليّ الصالح المجاهد سيّدي محمّد بن احمد العيّاشيّ فجاءني ذات يوم وقال لى انّي رايت في النوم اختى ورايت رجلاً جالساً مقطوع اليد تسيل دماً فقلت له من انت فقال انا الاسلام قطعت يدي بسلا قال فلمّا اخبرني قلت له الذي يظهر لي من رءياك انّ الرجل الصالح المجاهد الذي كان بسلا قد قتل قال وبعد ذلك في اخر العام قدموا الحجّاج من المغرب واخبروا بموته . ولولده الاجلّ الفقيه العلّامة عبد الله رحمه الله ارجوزة نظم فيها اهل بدر وتوسّل بهم الى الله عزّ وجلّ في هلاك اولائك الذين تمالئوا على قتل والده فلم تمض الّا مدّة يسيرة حتّى دارت عليهم دائرة السوء ولم ينج منهم احد والحكم لله الواحد القهار وقد رثي سيّدي محمّد العياشيّ بقصائد كثيرة منها ما قاله الفقيه الاديب البليغ الاريب ابو العبّاس سيّدي احمد الدغوغيّ

ان عاص ان غاض من افاض بحر ندا ... يحفّ روض منى كم ججّ منه ندا
فليحكه الدمع طوفاناً طفا هو عن ... من لا نظير له في غربنا وجدا
واطفئ النور والنيران موقدها ... ما لا انطفاء له من لوعة ابدا
فلا جمود لدمع لا خمود به ... لما تلظّى فؤادي منه مفتأدا
والشمس ان طلعت افلاكها عضلت ... احلاكها من تجلّيها ببدر هدا
كم شادكم سادكم سدّ الثغور وكم ... آذى واوعى غياث الغيث مقتصدا
وكم اباد جموع الروم قهراً وكم ... اردى العدا وعن الاسلام ذاد ردا
يا عين ويحك سحّي واردفي وكفى ... ويا فؤادي تفاد اللهب والكمدا
مات السرور فساءتك الشرور وقد ... سرّت وفاة نصير الحقّ من عندا
القائم الصائم المحيي اليه الوفا ... رباط فروّح السطيف مجتهدا
العالم الدائم الحروب في مدد ... واليوم صوما وصونا للعلا اعتمدا
لا خطب اعظم من هذا الملمّ لقد ... دهى واذهل حتّى لم يدع جلدا
بحر الكرامات روح المكرمات مضى ... غيظ الحسود وحيد العصر منذ بدا
وقرّة العين قاهر البغاة غدا ... وعصمة الدين والدنيا معا لجدا
هل كان الاّ جناً للمتجنى وردا ... لمن غدا بعدوّ الدين معتضدا
وماجداً منجداً للمعتري ما بدا ... للمعتدي وهدى للمتّقين هُدا
يرجو ويرهب اذ يدعو ويرغب ان ... يدنو مع الشهداء الصفوة السعدا
حتّى استجاب له ربّ وصاب له ... قرب وقابله ارب فكم جهدا
فوق المنى نال لكن حسن مقلته ... في الله يوثر من امثاله عددا
للذات والنفس لذّات لقد نهجت ... منه لوصل معالي ما لهنّ مدا
ما كان امنع تلك النفس لو رهبت ... لكنّها هربت من ارتهاب ردا
خلق له الخلق الصعب الابر حلا ... من الحفاظ زكيّ النفس سهل الندا
بعده ما دابنا عيش العلا سئموا ... عيش فلا عاش مولود ولا ولدا
اجراء جرّ لليث قد جرى دمه ... بين الكلاب كأن لم يفترس اسدا

لم يمس قطّ ولم يصبح سوى قدم ... يلقى فيلحم جمعاً من بيوت عدا
كانّه لم يصل في الله مستاصلا ... لله منتصراً بالله من جحدا
كانّه لم يقم بالحقّ منتقبا ... للحقّ او لم يقم من مبطل اودا
منه اكتسى جسد الدين الحياة الى ... ان راح فارتاح روح فارق الجسدا
قد جاء في نصّ وحى لا يموت فتى ... قد فاز بالروح والريحان في الشهدا
من اسمه اسم ابيه واسمه صفة ... توليهما صفة للشاكرين يدا
كلّ المحاسن مولاها محمّدها ... وكلّ وجدان حمد بعده فقدا
وكلّ حسن واحسان زهى شيما ... قولاً وفعلاً ففي وجدانه وجدا
من لي ولا من باتيان الزمان به ... في المكرمات بمثل يستحى صمدا
من لي ولا من بحاج للغثور ومن ... لي به لا من بان احظى به ابدا
من لي ولا من بحام بعده بطل ... لا في الوغا عدداً يخشى ولا عددا
نار القرى في القرع من مهنده ... وكم قرا الضيف من لحوم من عندا
فغادروه وقوم غدروه لهم ... شيئان حكمهما سيان فاتّحدا
عدّوا وليسوا ذوى قربى وكالامنا ... كانوا فخانوا من استدناهم بعدا
لو جملة بحسام العدل صبّحها ... ما يبتّه جموع الجور منفردا
لكنّهم بقر ضلّوا وقد نفروا ... راعيهم فليظلّوا يجأرون سدا
فليضحكوا اليوم وليبكوا فقد ذهلوا ... عن علم ما جهلوا ممّن يرون غدا
وتلك ايّامها دنيا مداولة ... من بات يفرح ساءته غداة غدا
وعيشكم آل عيّاشى فلا تهنوا ... بعد محمّد ان يذمم فقد حمدا
ان غاب مرءاه فالاثار شاهدة ... مشهودة فليبؤ بالرغم من جحدا
في الخلد حيّاه رضوان وهنّاه ... من مالك الملك بالرضوان اذ وفدا
يا اولياء قتيل الظلم حسبكم ... سلطان نصر بنصر الذكر قد شهدا
ما غاض بل فاض بحر بعد ما انفجرت ... من لجّه فجرت بحور ندا
بل في ابنه وبنيه الاسد ثم لهم ... يمن سيملا عيناً بالمنى ويدا

ويتهى الامر منكم في الانام لما عقباه ترضى وتردى اولياء عدا
فألي ببالي به في صدقه ولكم ما فيهما من مصيب جدّ واجتهدا
كمال فوزي بحسن الحسنَيْن معاً والله حسبي كفاني صدقه الفندا

ذكر الخبر عن اهل الزاوية الدلائيّة ومبتدا امرهم

وكيفيّة انتشار ذكرهم وكمال فخرهم رحمهم الله

امّا نسبهم فهم برابر مجاط بطن من صنهاجة حسبما ذكره ابن خلدون وغيره كما رايته بخطّ شيخنا الامام ابي عبد الله المسناوي رحمه الله وامّا مبدا امرهم فانّ جدّهم الوليّ الاشهر ابا بكر بن محمّد المعروف بحمّى بن سعيد بن احمد بن عمرو سكن الدلاء واتّخذ هنالك زاوية فجاء ولده الوليّ الاطهر محمّد بن ابي بكر فكمل من الفضائل ما بقي وابدا من الاسرار ما خفي فتناقل الركبان حديث هذه الزاوية في الافاق وقصدها الناس من كلّ جهة على الاطلاق الى ان كان من اولاد الرجلين ما كان وها نحن نرتب القول في ذلك فامّا السيّد ابو بكر بن محمّد فكانت ولادته سنة ثلاث واربعين وتسعماية ويقال انّ الذي سمّاه ابا بكر هو الشيخ الشهير ابو الحسن على بن ابراهيم البوزيديّ دفين اخرط وانّه جاز بتلك البلاد ايّام ولادته وادرك يوم عقيقة فاتوه بطعام من العقيقة وقالوا له فما نسميّه فقال ابو بكر فقالوا له ان البرابر يغيّرون الاسماء فيصيرون ابا بكريك فقال لهم انّهم لا يغيّرونه ان شاء الله فكان الامر كذلك ثمّ ان السيّد ابا بكر لمّا سبق له من العناية الربّانيّة تعلّقت همّته بابتغاء شيخ يسلك على يديه فرحل الى الشيخ ابي عمر المرّاكشي فلمّا جلس بين يديه اقبل عليه في اوّل مرة اقبالاً عظيماً وضمّه اليه والبسه قلنسوته بيده وكان راس ابي بكر اضخم من راس الشيخ ابي عمر فلم تسع القلنسوة راسه فجعل الشيخ يوسعها

ويكلفها راسه فاخبر سيدي ابو بكر انّه فتح له في ذلك الالباس امر عظيم من الملك والملكوت وعلم الملايكة ثمّ الغيبة عن ذلك كلّه ويقال انّ الشيخ ابا عمر امره بحراسة بستان له فاقام في خدمته مدّة الى ان اذن له الشيخ بالتوجّه الى بلاده فتوجّه اليها الّا انّه كان يتردّد لزاوية الشيخ مع الاخوان وحكى انّه هاجت عليه المحبة يوماً وهب نسيم الشوق للشيخ فسار اليه وحده فوجده في جنازة والوباء اذّاك بمرّاكش ولعلّه وباء خمس وستّين وتسعماية فقال له الشيخ ما جاء بك الم يقل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم اذا سمعتم به بارض فلا تقدموا عليها فقال لا عقل لي فقال واين رفقاؤك فقال انّما جئت وحدي فقال له الم يقل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الواحد شيطان والاثنان شيطانان فقال لا عقل لي فعذره ولمّا توفّي الشيخ وجد ابو بكر في حاله نقصاً وفقد ما كان يالفه في نفسه ولم تقله ارض ولم تظلّه سماء وهام على وجهه في البريّة مع الوحوش والسباع واقبل على تلاوة القرءان فقرأ ختمات فلم يرجع اليه حاله ثمّ اقبل على ذكر لا اله الّا الله مدّةً مديدةً فلم يخبر حاله ثمّ اشتغل بالصلاة على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم زاهداً في الدنيا غير ملتفت اليها فعاد اليه حاله روجد ما كان فقد وكان رحمه الله محافظاً على السنّة قائماً بالشريعة بحّاثاً على العلم حاضّاً على تعلّمه وتعليمه تالياً للقرءان كثير الذكر والصلاة على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم زاهداً في الدنيا غير ملتفت اليها ولا ناصراً لزهرتها وكلّ ما فتح عليه منها صرّفه في مصارفه في الحين ولا يلتبس بقليل منها ولا بكثير وقال صاحب مرءات المحاسن في حقّه انّه من اكابر مشايخ المسلمين واولياء الله المقربين وحيد عصره ونسيج وحده متوسّم بالشريعة متحقّق بالحقيقة بحر جود لا ساحل له يعطى عطاء من لا يخاف الفقر فلو راى من مضى بعض من مكارمه لم يذكروا في الندا معنى ولا هرماً اقام الله به رسم الجود وافاض به نعمته على الوجود يكلّ اللسان والقلم على استيفاء فضائله التى هى اشهر من نار على علم وحسبك ان المغرب لمّا تداعت قواعده وانهدّت اركان الملك به فاختلّ النظام وماج النـاس كان ماوى لاهل

العلم والدين ومورد الضيوف والمساكين فاعتصم الاسلام منه بحصن حصين وربوة ذات قرار ومكين فهو الذي امسك رمقه وابقى رواءه ورونقه فداره ما زالت ولا تزل ان شاء الله دار العلم والدين ومشرع الجود والعذب المعين والنهوض باعباء مصالح المسلمين . وقد زاره الشيخ الحافظ ابو العبّاس سيّدي احمد بن يوسف الفاسيّ في محرّم فاتح ثمانية عشر والف فاقام عنده ايّاماً واخذ عنه وانتفع به فلمّا رجع الى فاس سالوه عنه فقال اخذ الناس بالاوصاف واخذ سيّدي ابو بكر بالاتّصاف . وكان رحمه الله كثير الاطعام بحيث بلغ فيه النهاية ويطعم الناس على اقدارهم تمسّكاً بحديث امرت ان انزل الناس منازلهم وكراماته وبركاته شهيرة توفّي رحمه الله عند طلوع الشمس يوم السبت الثالث من شعبان المبارك سنة احدى وعشرين والف ودفن في الدلاء وامّا ولده سيّدي محمّد بن ابي بكر فهو واسطة العقد خاتمة مشائخ المغرب وغرّة السعد اليها انتهت رياسة الدين والدنيا واستقلّ بسياسة الامور الجليلة والرتب العليّة الجميلة بلغ في الولاية مبلغاً لم يكن لاحد من اهل وقته في دهره وشاع له من الذكر وحسن الصيت ما لم يشع مثله لغيره وناهيك ان الفقيه المحدّث ابا الحسن سيّدي علي بن عبد الواحد الانصاري السلاويّ كتب رسالة الى شيخه الحافظ الفقيه ابي العبّاس احمد المقّري عام سبعة وثلاثين والف وابو العبّاس اذّاك بمصر فكان من جملة ما اخبره به فيها ان قال له ومحبّكم الاكبر ووليّكم الاطهر سيّد اهل المغرب اليوم وشيخ الطريقة والمربّي في سلوك اهل الحقيقة العارف بالله تعالى الشيخ الربّانيّ ذو الكرامات العديدة والمقامات الحميدة سيّدي محمّد بن ابي بكر الدلاءي يحبكم ويعظّم قدركم ولسانه لكم ذاكر ناشر شاكر وهو على خير . وهذه الرسالة مثبتة في نفح الطيب للمقّري المذكور ولد رضي الله عنه تقريباً سنة سبع وستّين وتسعماية حسبما ذكره شيخنا في فهرسته واخذ عن الشيخ ابي عبد الله سيّدي محمّد بن ابي القاسم الشرقيّ بعد ان تطوّف على صلحاء المغرب غاضّاً طرفه عن سيّدي محمّد بن ابي القاسم المذكور فلم يقع اختياره على

امر غيره فتلمذ له الى ان حصل له من الحظوة والوجاهة فوق ما كان لسائر من عاصره وكان رحمه الله عالماً حافظاً درّاكاً متوسّعاً في علم التفسير ومعاني الحديث وعلم الكلام والعربيّة واللغة حسن المشاركة فيها وفي غيرها وقال صاحب بذل المناصحة في حقّه ما نصّه امتدّت اعناق الخلائق للعطاء منه شرفاء وعلماء وغيرهم وقد بسط رحمه الله يده في ذلك ما استطاع حتّى عزّ القاصر زيارته في الله عزّ وجلّ وانّما قصدوه فيما ينتلون من يده وحتّى ان من لم يرضه يطلق اللسان لقلّة الانصاف من الانسان وهل يقتضون ديوناً ترتّبت لهم عليه او اخترموا له فيما يعنون لديه يعرف صحيح البخاري ويتقن ضبطه لقيته وتذاكرت معه عقيدة الواحدي لا يثنيه فعله . وكان شيوخ الوقت كالحافظ ابي العبّاس المقّريّ وسيّدي عبد الواحد بن عاشر والحافظ ابي العبّاس احمد بن يوسف الفاسيّ والفقيه ابي عبد الله محمّد بن احمد ميارة وغيرهم يقصدون زيارته ويتبرّكون به ويراجعونه في عويص المسائل العلميّة . وقال في كتاب الاعلام ما نصّه في حقّه لو تفرّغ متفرّغ لجمع فضائله في ديوان مستقلّ لم يجمع منها الّا ما يندر ويقلّ ولو صنّف من انواعها اصنافاً والّف من اعدادها الافاً . وما احسن ما قال في مدحه الاديب البليغ الفقيه ابو العبّاس سيّدي احمد الدغوغيّ رحمه الله تعالى

اعجب لما لا تحاماه فسرّ به ... هل لا تحاماه عار من حلا ادبهْ
امدّعي الادب اقصرْ لا ابا لك ما ... انت بكفو لما اصبحت تفرح بهْ
مالي وللشعر لولا ما كلفت به ... من مدحيَ ابن ابي بكر على رتبهْ
محمّد القطب ما اغنى شمائله ... عن وصفه فهو مصباح على لهبهْ
لكنّه شمس نور بل له شرف ... من فوق ذلك لا يرقى لمكتسبهْ
العالم العلم الهادي الانام الى ... اهدى سبيل وذاك البعض من قربهْ
حامي النزيل مزيل البأس منزله ... على وفاق رضى الجبّار او غضبهْ

احيا الشرائع بل افنى البدائع بل ... سدّ الذرائع منه الجدّ عن تعبهْ
وربّما ارتاح طوراً للمزاح وكم ... ازرى بذي الجدّ مرتاحاً على لقبهْ
اما ومعطيك من كلّ الفضائل ما ... لم يعطه طالب قد جدّ في طلبهْ
لبعض ما حزت كلّ المكرمات حكا ... ك البحر بالدر والعقيان من حصبهْ
امسى حمى العلم ذا اهلين في حرس ... لولاك اصبح يوم الجهل في خربهْ
كم نال منك غنى مسكين مترية ... وآل ذو سغب للخفض من سغبهْ
وكم فككت اسيراً لا نصير له ... وكم جبرت كسيراً هيض من نوبهْ
وكم اخا كربة خلّصته فنجا ... ممّا دهاه ونال الامن من كربهْ
وكم سليب من الدنيا واخر من ... دين يرى بك كلّ ردّ مستلبهْ
وكم ظلوم ومظلوم اجرت على ... نصر على ذاك مع رد لمنتهبهْ
وكم دقعت ولا دفع الغضنفر عن ... اشباله الرخص عن ذي الحيل من عطبهْ
وكم كان لم يكن للمسلمين اب ... سواك والناس كلّ يعترى لا بهْ
ما زلت مذ كنت اتقى الناس اكرمهم ... واكرم الناس اتقاهم على رهبهْ
وانت احرصهم رفقاً واعزمهم ... سبقاً اذا اختار ذو سبق مدا نصبهْ
نعم وارسخهم علماً واصونهم ... عرضاً وارسنهم حلماً على حسبهْ
بل انت اجودهم كفّاً وارشدهم ... كفّاً لهم عن اذى يخشى وعن سببهْ
يا ليت شعري لو جاء الاوائل من ... قسّ البيان ومن جاراه في خطبهْ
هل يستطيعون ان يثنوا اذا اعتسفوا ... على كمالك بالمعشار من نخبهْ
من مرتضى كملت اوصافه وزكى ... اصلاً وفرعاً الى حيث انتهى نسبهْ

وكان لبرابرة ملوية فيه اعتقاد عظيم وخدمة تامّة يتبرّكون باثاره ولا يتجاوزون رايه ويقفون عند حدّه ومقداره وكان للزاوية صيت عظيم وكان بها من معاناة العلوم والدءوب على التدريس والاقراء ليلاً ونهاراً حتّى تخرج به جماعة من صدور العلماء واعيانهم وكانت له الرحلة في المغرب لا يعدوها طالب ولا يأمل

غيرها راغب وحدّث غير واحد من الاشياخ انّه لمّا دنت وفاته رحمه الله جمع اولاده وذويه وقال لهم انّ الله عزّ وجلّ اخبر عن قول طالوت لقومه ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانّه منّى الّا من اغترف غرفة بيده وانا اقول لكم ولا من اغترف غرفة بيده يشير لهم بذلك الى ما يتجاذبونه من امر الرياسة بعده ويبتلون به من ابهة الخلافة وذلك من مكاشفته رحمه الله وقد اعترض عليه بعض الطلبة في قوله وانا اقول بانّه سوء ادب لمقابلته كلام الله تعالى بكلامه واجاب عن ذلك من احفاده شيخنا الفقيه العلّامة الشهير ابو عبد الله سيّدي محمّد بن احمد بن المسناويّ ابن سيّدي محمّد بن ابي بكر برسالة مستقلّة لولا الاطالة لجلبناها بنصّها وكانت وفاته رحمه الله سنة ستّ واربعين والف فكان عمره نحواً من ثمانين سنة بحال تقريب ولمّا توفّى سيّدي محمّد بن ابي بكر خلّف عدّة من الاولاد فكان اكبرهم هو السيّد محمّد الملقب بالحاج لانّه حجّ مع ابيه وجدّه مراراً ولقى بالحجاز ومصر عدّة من المشائخ ويقال انّه صلّى بالناس يوم عرفة على ظهر الجبل لامر اقتضاه ولم يكن ذلك لاحد من اهل المغرب قبله وكان السّيد محمّد الحاجّ فقيهاً عالماً مشاركاً جواداً رايت بخطّ الفقيه الاديب ابي العبّاس احمد بن سليمان الداوديّ رحمه الله ما صورته كتب لسيّدي محمّد الحاجّ حفظه الله تعالي بمنّه

ايا سيّد الاقوام آن ارتحالنا ... ولابن السبيل في جنابك مطمع
جميل ولا حملان الّا بحملكم ... عديم ولا عدوان لكن سميدع
فان لم يكن طرف فاثنى ببغلة ... والا بعير فيه مرءى ومسمع

قال ففرح بالابيات وتضاحك منها وبعث له بثلاثين مثقالاً وقال هى لك اخفّ مؤنة وكان لاهل الزاوية اعتناء بعلم الادب وارتياح لرائق الاشعار ومنتخب الخطّ ولقد نبغ من ابنائهم جماعة ممّن لهم السبقيّة في ذلك المضمار والاجادة

التى اشرقت اشراق الاقمار فقد وجدت بخطّ العلّامة سيّدي عبد الوهّاب الفاسيّ رحمه الله قال انشدني سيّدي محمّد الشرقيّ في ابي بكر بيتاً يستفهمني فيه عن زوال الشمس

هل زالت الشمس ام لا فاقضَيَنْ اربي لا زال ظلك ممدوداً على الادب

فاجبته

قد زالت الشمس لا زالت مكارمكم تنوّر الافق في الدنيا مدا الحقب
وان تك الشمس غابت في مغاربها فشمسكم في سماء الفضل لم تغب
وان يك الافق الغربيّ مطلّبها فما لنا من سوى الشرقيّ من ارب

ولسيّدي الشرقى المذكور

الصفح يرتقب الاجابة منكم والحلم يخدم كالاسير الاعجم
انّ السهولة والسماحة والنهى للمرء والاحسان خير توسّم
الندب من ظهرت بشاشة وجهه والغمر من يصمى العقول بأسهم
اجعل مُريضاً ان اتاك اجاجة عذباً تسوّغه لذيذ المطعم

ومن اشهرهم الاديب العلّامة ابو عبد الله سيّدي محمّد الطيّب بن المسناويّ ابن سيّدي محمّد بن ابي بكر واشعاره وموشحاته مشهورة ومن اعيانهم في التضلّع بالعلوم خصوصاً علم العربية ابو عبد الله محمّد المرابط بن محمّد بن ابي بكر له شرح على التسهيل لم يولف مثله وشرح البسيط والتعريف وشرح الورقات وغير ذلك وكان له في الادب الباع المديد وبالجملة فالاعتراف بالحقّ فريضة ومسائل اهل الدلاء طويلة عريضة ولو تتبّعت ما لهم من النظام والنثار لادى ذلك الى الملل والاكثار ولا يجهل فضلهم الاّ الاغمار الذين قلوبهم بداء الحسد مريضة والاّ فرياض مفاخرهم بالكمالات اريضة

اذا لم يكن للمرء عين بصيرة فلا غرو ان يرتاب والصفح مسفر

وكان السيّد محمّد الحاج رحمه الله احسن سيرة الفقهاء وسيرة الملك فقام بالوظيفتين واجمل في الطريقتين وفي ايّامه تكامل امر اهل الزاوية الدلائيّة وشاع وعلا صيته وذاع حتّى ملا الاسماع وتمهّد الامر لابي عبد الله محمد الحاج واولاده واخوته وبنى عمّه الى ان تملّك مدينة فاس ومكناس واحوازها وكافّة القطر التادليّ واجتمعت برابر ملوية اليه واذعنوا له بالطاعة واعصوصبوا عليه ووقعت بينه وبين السلطان محمّد الشيخ بن زيدان السعديّ وقعة ابي عقبة فهزم السلطان المذكور وانتشر جمعه وذلك في حدود الخمسين والالف ومن ثمّ قطع النظر عمّا وراء وادي العبيد وفي ضحى يوم السبت ثاني عشر ربيع النبويّ سنة ستّ وخمسين والف كانت وقعة الخارة بينه وبين صاحب سجلماسة ابي عبد الله محمّد بن الشريف الحسنّي فوقعت الهزيمة على السيّد محمّد بن الشريف ودخل السيّد محمّد الحاجّ سجلماسة وفعل البربر فيها الافاعيل العظيمة ثمّ انبرم الصلح بينهما على انّ من الصحراء الى جبل بنى عيّاش فهو لمولاي محمّد بن الشريف وما دونه لاهل الدلاء وشرط اهل الدلاء على مولاي محمّد خمسة مواضع ممّا هو تحت يده وجعلوها لهم وهى الشيخ مغفر في اولاد عيسى والسيّد الطيّب في قصر السوق واحمد بن علّ في قصر بنى عثمان وقصر حليمة في وطن اغريس واسرير فركلا فهذه الخمسة الاماكن شرطوا عليه الّا يحرك لهم فيها ساكن وانبرم الصلح بينهما على ذلك ورجع اهل الدلاء بجموعهم فما كان غير بعيد حتّى اطلع مولاي محمّد بن الشريف على ما اوجب ان فتك بالشيخ مغفر وبعض من شرطوا عليه ابقاءه فبلغ ذلك اهل الدلاء فجمعوا جموعهم وقصدوا سجلماسة وعزموا على الّا يدعوا لمولاي محمّد بن الشريف قليلاً ولا كثيراً وان يستاصلوه وكتبوا له كتاباً فخدّوه فيه ورموه بالغدر وانه عاقد ناكث وقاسم حانث واغلظوا له في الكتاب واخشوا عليه في الخطاب

فاجابهم مولاي محمّد بن الشريف برسالة نصّها باختصار الى السيّد محمّد الملقب بالحاجّ ابن السيّد محمّد بن السيّد ابي بكر بن محمّد وهو حمّى بن سعيد بن احمد بن عمر ابن سير الوجّاريّ الزمّوريّ ومن شمله معه رداء الديوان من الابناء والاعمام والاخوان سلام على جلّهم سلام استحباب وسنّة فقد كتبناه اليكم من سجلماسة كتب الله لها من شركم انفع تمائم والبسها من الظفر بكم ارفع عمائم وبعد السلام فانّ نيران هذه الفتن التى اضرمتموها بعد خمودها لستم لها باهل لم يعرفكم اهل المغرب الّا باطعام قصاع العصائد وهجو بعضكم لبعض بما لا يسمع من بشيع القصائد وامّـا العلوم فقد اقررنا لكم فيها بانصاف التسليم لو قصدتم بها العمل واجراء التعليم وايم الله لئن نظم فينا الديّان شمل الديوان حتّى تعاين انت وبنوك ما تبنيه لنا البنون والاخوان ولقد حدّثت السادات اهل السريرة وان ستدور عليكم منّا الدوائر المبيرة اتطمعون في النجاة بعد ترويعكم الشرفاء والشريفات والعـابدين والعابدات النظيفات فشمّر ان شئت عن سـاعد الجدّ في الصلح واغتنم السلم ما دام يساعدكم وقته فانّ الحرب نار والتخلّف عنها بعد وقوعها شنـار والله يعلم انّ هذه المراودة ليست بجزع ولا وجل منكم وما نشبتم عند الهراش الّا بما يعليش حول المصابيح من الفراش بل المراد الاوكد نشر رداء التبرّئ لئلاّ تجاروا متى انشبنا فيكم مخالب التجرّئ وما قذفتم به اعراضـاً من خسّة القدر وانّنـا قساة لا نصغى لقبول العذر فانتم تنهون عن الفحشاء وقد ملاتم منها الاحشاء وان زجرتم عنها قلتم كلا وحشى ولكن من انتج نسلاً نسب اليه ومن خاف من شئ سلط عليه واما مـا احتوى عليه بساط المغرب ما بين بربر وعرب فقد طمعنا من الله كونه في القبض ان لم اكنه بالذات والديوان فبـالابناء والاخوان كعـوائد الدول يشرق الاخير بما اسّسه الحازم الاوّل وانظروا ما يكون لخاطركم به اطمنان فنساعدكم عليه ويكون الوقوف عنده وبيديه فلله درّه من دغوغىّ اشاع عارك بابيات انشدها لنا مولاي محمّد بن مبارك وهى هذه

واعلم بانّك من دجاجل مغرب فبعيدى صولة نصره ستموت
انتم عكاكز خلّفتكم عاهر وابو سعيد جدّكم جالوت
شبّانكم مرد وكلّ كهولكم قرنان صنعة شيخكم ديّوت
كرهت لدولتكم سماوات العلا واستقلتها الارض والبهموت

وما انت في الحقيقة الّا قرد من القرود والقرّاد اللاصق في كلّ كلب مجرود وما صرّحت به من انّ الصلح بين الملوك مكيدة قد سبقك به السلطان ابو حمّ رحمه الله وحتّى الان اخر المراجعة بيننا هذا الكتاب فان رغبتم في الخير فهو مطلبي ومغناطيس طبّي وان عشقتم الغير فجوابي لكم قول ابي الطيّب المتنبّي

فلا كتب الّا المشرّفية والقنا ولا رسل الّا بالخميس العرمرم

والسلام . والدغوغيّ الذي سلف ذكره ونقل مولاي محمّد الشريف في رسالته هجوه هو من موالي اهل الدلاء ونشا فيهم فبرع في الادب وكان هجّاء لا يكاد يسلّم من هجوه احد وحكى انّه كان يجلس عند موضع معدّ لطرح الكناسات والقمامات فلا يمرّ به ذكر ولا انثى الّا هجاه نظماً ونثراً وكان يصيب في عرض الهجاء وهجا عدّة من الشعراء فتحدّاهم قيل ولم يعجمه الّا رجل اسلاميّ كان ممن رضع ثدي الادب في الزاوية فقال فيه وكان الدغوغيّ فيه نقط من البرص ما نصّه

يا نقمة جلست بمربض البقر ونقطة ظهرت في اقبح الصور
اذا راك اناس قال قائلهم سبحان من اظهر الشيطان للبشر

ولم يزل مولاي محمّد بن الشريف رحمه الله مقتصراً على ما وقع عليه الصلح بينه وبين اهل زاوية الدلاء الى ان بعث له اهل فاس كما سياتي بيانه ان شاء الله تعالى فبايعوه واقام عندهم مدّة فجهّز له السيّد محمّد الحاجّ جيشاً عظيماً فوقعت الكائنة على ظهر الرمكة بظاهر فاس يوم الثلاثاء عاشر شعبان سنة

تسع وخمسين والف فهزم مولاي محمّد مع اهـل فاس هزيمة شنيعة وذهب مولاي محمّد لسجلماسة ودخل اهل الزاوية مدينة فاس وعادت لهم الدولة فيها ولم يزل امر اهل الزاوية مستقيماً بعد الى ان ثار السلطان الافخم مولانا الرشيد ابن مولاي الشريف ببلاد الجريد وقدم بجيوش يقودها من عرب انفاد ومن انجادها وكماتها فحاصر مدينة فاس مدّة الى ان استولى عليها كما سياتي ان شاء الله ثمّ توجّه نحو الدلاء فجهّز له ابو عبد الله محمّد الحاجّ عسكراً عظيما من البربر وغيرهم فالتقت الفئتان بموضع يقال له بطن الرمّان فوقعت الهزيمة على اهل الدلاء وذلك اوائل المحرّم فاتح سنة تسع بمئاة وسبعين بتاخير الموحّدة والف قال الشيخ ابو علىّ اليوسىّ في محاضراته ولمّا وقعت الهزيمة دخلت على ابي عبد الله محمّد الحاجّ وكان لم يحضر المعركة لكبر سنّه فاظهر اولاده واخوانه حزناً شديداً وضيقاً كثيراً وجزعاً عظيماً فلمّا راى منهم ذلك قال لهم ما هذا الجزع وما هذا الحزن ان قال لكم حسبكم فحسبكم يريد الله تعالى . ولمّا دخل مولانا الرشيد الزاوية غيّر محاسنها وفرّق جمعها وطمس معالمها وصارت حصيداً كانّ لم تغن بالامس وكانت مشرقـة كاشراق الشمس فمحت الحوادث ضياءها وقاصت ظلالها واقياؤها وطالت ما اشرقت بابي بكر وابتهجت وفاحت من شذاهم وتارّجت ارتحلت عنها فرسان الاقلام الذين ينجـاب بوجوههم الظلام وبانت منها ربّات الخدور واقامت اثاراً للصدور ولقد كان اهلها يعفون اثار الرياح فعفت الريـاح اثارهم واذهبت ابدانهـم وابقت اخبـارهم فتلّ ذلك العرش واعتدلت الليـالي حين امنت من الارش ولم يدفع الرمح ولا الحسام ولم تنفع تلك المنن الجسام فسحقاً لدنيا مـا راعت لهم حقوقاً ولا ابقت شروقاً وهى الايّام لا تبقى من تجنيها ولا تبقى موليها ومدينها ادبرت اثار حلف واخمدت نار المحلّف وذلّت غرّة ابن شداد واهدت القصر ذا الشرافات من سنداد وكلّ يلقى معجله وموجله ويبلغ الكتاب اجله ولقد احسن ربّي نعمهم المقرّ باحسانهم الامام الذي وقع على علمه وعمله الاتّفـاق شيخ مشائخ المغرب على الاطلاق ابو

علّي الحسن بن مسعود اليوسيّ رحمه الله في رائيّته التي رثى بها زاوية الدلاء وبكى ايّامهم واوّلها

اكلّف جفن العين ان ينثر الدرا فيابي ويعتاض العقيق بها جمرا

وهي طويلة ولشهرتها تركنا جلبها وامر الرشيد سيّدي محمّد الحاج واولاده واقاربه ان يحملوا لفاس ويسكنوا بها فحملوا اليها واستوطنوها مدّة ثمّ امر بهم ان يذهبوا عنها لتلمسان فذهبوا اليها وسكنوها وحدّثونا انّ السيّد محمّداً الحاج لمّا دخل تلمسان قال وجدت في بعض كتب الحدثان انّي ادخل تلمسان فظننت انّي ادخلها دخول الملوك فدخلتها كما ترون ولم يزل بها الى ان توفّي رحمه الله بعد الثمانين ودفن بضريح الامام السنوسيّ رضى الله عنه ولمّا توفّي مولانا الرشيد رحمه الله رجع اولاده واقاربه لفاس فسكنوها باشارة من السلطان المظفّر مولانا اسماعيل قدّس الله روحه في الجنان وفي ذلك انشدني غير واحد من اصحابنا الفاسيّين للفقيه ابي محمّد عبد الوهّاب ابن العلّامة سيّدي العربيّ الفاسيّ من قصيدة له يمدح بها اهل زاوية الدلاء

اهل الدلاء اهل نجد وارضهم ارض رامة
لن يبرح المجد فيهم حتى تقوم القيامة

وعاقبه السلطان الرشيد بن الشريف على ذلك وحرمه من اعطائه وقال له انّ هذا المدح لا يليق الّا باهل البيت ومن اللطائف الادبيّة انّ السلطان مولانا الرشيد رحمه الله لمّا استولى على اهل الزاوية كما ذكرنا قبل كان ابو عبد الله محمّد المرابط يوماً في مجلسه فانشد السلطان الرشيد معرضاً به

ومن نكد الدنيا على الحرّ ان يرا عدوّاً له ما من صداقته بدّا

ففهم ابو عبد الله اشارته فقال له ايّد الله الامير انّ من سعادة المرء ان يكون خصمه عاقلاً فاعجبه ذلك واستحسن الحاضرون بديهته ولطافة منزعه والله ولى من تولّاه

ذكر الخبر عن قيام ابي الحسن علىّ بن محمّد بالسوس

وصنوه ابي حسّون وما وقع في ذلك

هو علىّ بن محمّد بن الوليّ الصالح ابي العبّاس سيّدي احمد بن موسى السوسىّ السملاليّ رحمه الله كان بدء امره انّه لمّا ضعف زيدان عن القيام بالامر بالصقع السوسىّ وفشل ريحه فيه نبغ هو فدعا لنفسه وجرّ نار الرياسة لقرصه وتالّفت عليه البرابر من بسائط جزّولة وحرسا واجتمعت عليه القبائل السوسيّة واستولى على تارودانت وعمالتها الى ان اخرجه عنها الفقيه المرابط ابو زكرياء يحي بن عبد الله وصفى لابي الحسن القطر السوسىّ ونفذ به امره وسمعت كلمته ومدّ يده لدرعة فاستولى عليها ثمّ مدّ يده لسجلماسة فاستولى عليها وعلى نواحيها واستحكم امره وتقوّى عضده ولم يزل امره بسجلماسة الى ان ثار عليه عقاب الشائف الاسد الهصور مولانا محمّد بن الشريف فاخرجه من سجلماسة بعد معارك وزلازل يشيب لها الرضيع ثمّ اخرجه من درعة ايضاً ووقع بينهما بدرعة حروب عظيمة ولم يزل ابو الحسن قائما بالسوس الى ان توفّى سنة سبعين والف وكان رحمه الله ليّن الجانب محمود السيرة موصوفاً بالعفاف متوقّفاً في الدماء ولمّا مات خلفه ولده ابو عبد الله محمّد بن علىّ ولم يزل قائماً مقام والده الى ان اقتحم عليه السلطان مولانا الرشيد رحمه الله كما ياتي فبلغ صقر ابي الحسن ايلغ السوس وتركه لامس الدابر والملك لله وحده